محمد فتيلينه

خيام المنفى

رواية

منشورات بغدادي

محمد فتيلينه

خـيام المنفى

رواية

منشورا ت بغدادي

خيام المنفي

محمد فتيلينه / روائي جزائري

2016

دار بغدادي

للطباعة والنشر والتوزيع

حي بن شوبان -الرويبة-

الجزائر.

الهاتف : 18 07 76 023

الفاكس : 17 07 76 023

البريد الإلكتروني : editions-baghdadi@hotmail.com

جميع الـحقوق مـحفوظة

تصميم وتصفيف : نعيمة بن تواتي

تصميم الغلاف : نعيمة بن تواتي

مراجعة لغوية، الأستاذ : أبو حسان بو بكر جعجاع

- يستعين فتيلينه بالتراث ليكسوه ثوب المعاصرة، ويسقطه على الواقع في محاولة منه لتوظيفه بما يتلاءم مع رؤاه، **الجزيرة. نت**
- أسلوب الروائي محمد فتيلينه مميز، و حازت كتاباته على الإشادة من الجمهور المهتم بالرواية العربية، **بي بي سي العربية.**
- رواية "بحيرة الملائكة" للروائي محمد فتيلينه، من أفضل الكتب العربية الـخمسين، الصادرة في القاهرة لسنة 2013، **موقع googreads**
- محمد فتيلينه، روائي وكاتب متميـز من الجيل الجديد. وهذا موقفي أنا كقارئ... **الدكتور والروائي أمين الزاوي**- أستاذ النقد الأدبي بجامعة الجزائر.

الإهداء

إلى والديّ

إلى زوجتي، وأولادي: **إدريس، أريج، خولة**

*

إلى **عزلاوي عبد السلام، وخالد عبد السلام وثامر مرينيزه**

عرفانا لهم على ما بذلوه.

إهداء خاص جدا إلى الروائي

عبد الوهاب عيساوي

سرب القطا

" في أعماق كل بدوي خيمة من ذكريات، تسكنه وتلاحقه، حتى وإن استوطن أرقى عواصم العالم ".

لاح في الأفق مجموعة من الرعاة. وهم يدفعون بسواعد نحيفة خرافا مزدانة بصوف ناصع البياض، قد بدت والشمس تميل إلى المغيب كأنها "زوّادات" مغلفة بالأكفان. تتراءى على التخوم وكأنها أكفان حياة. وبينما تقترب من الخيام، تغري نصاعتها صفاء يوم **أغسطسي** جذلان بساعات ضُحاه، وبسحر أنفاسه المسائية.

بدت السماء صافية، وهي ترسل عبر زرقتها بالكثير من الهدوء والوداعة، إلى كل الكائنات المحيطة بهذه البادية، وإلى طير القطا المحلق بوجل في فضاءٍ صافٍ ورحب.

لم يكن الأمر كذلك مع المساء السابق، حين أعطى الانطباع لزائري السّوق الجديد -على قلّتهم- بأن يومهم هذا أشبه بمساءات أبريل، السعيدة بالربيع، وبريح الصبا المطعّمة بالحنين. ريح ما فتئت تتلاعب بالخيام، عبر أكمة شامخة تعاند السماء، كأنف شيخ القبيلة، المُلقّب بأرفع رتبة عسكرية للجند العرب،"**القايد**". ذلك الكهل المفاخر ببندقيته الفرنسية ذات الماسورة الإيطالية الفخمة. والمزهو بفرسه العربية الأصيلة، التي سمّى باسمها ابنته البكر.

تتابعت بالأمس الخطى وكأنها احتفت لدهر ممتد بيوم السوق، ويا له من سوق.

أعلنت سلطة هذا المكان بلسانها الفرنسي أن سوق **حاسي بحبح** الأسبوعي سيكون الخميس الأول من سبتمبر 1930 هو أول نفس فيه.

كان تركي في الخامسة من عمره. لم تكن سنه الصغيرة لتخون ذاكرة شيخ هرمٍ حفرت في حناياها كل شاردة وواردة، لتروي الأحداث مع تعاقب السنين.

لم تكد تقترب خطوات أهل القرية القليلة العدد، حتى بدا أن زوار السوق أكثر منها عددا وبضاعة. خبر افتتاح السوق بلغ الأسماع، ووصل إلى الأمصار القريبة مهديا الأحلام لقلوب من احترف البيع، ولعيون الزائرين البدوية.

لا زال تركي يذكر، حينما كان مندفعا بخطى الطفولة البائسة، عبر عوالم طغت عليها نكهات الخبز الإفرنجي الساخن، وقهوة الثكنة "الرومية" التي كانت رائحة تحميصها تصل إلى الأنوف على بعد آلاف الأمتار من مركز حاسي بحبح.

كانت البلدة مع مطلع القرن العشرين مزدانة بثلاثة صروح جعلتها تتمدّن بعد صراع سنوي مع غبارها الموسمي وقفارها الأزلي. صروح ترجم الحضارة. كل أولئك الزائرين ليسوا بالتأكيد أهل مدنية، مستثنيا عمّه سالما الذي كان يشرف على محطة القرية لحين من الزمن، محطةٌ وحيدة متاخمة لكنيسة ترعاها سيدة جميلة تسمى Geneviève.

لم تكن Geneviève ترضى بغير ثياب المسلمين. فهي تهوى ارتداءها خصوصا في شتاءات هذه البادية القاسية والقارصة. "عمامة" النسوة البيضاء تتوّج شعرها الكستنائي الذي كانت خصلاته تفر دوما إلى عيون الفتى الطفولية. ويغطي كتفها "شال" أبيض يميل إلى اللون الأصفر تطعّمه خيوط بالكاد تراها العين، حمراء وسوداء تتبادلان البروز على ظهر القطن الصعيدي. برغم عمرها الذي يقترب من الستين إلا أن مسحة الحياء، المغلفة في ذلك اللباس العربي، زادتها جمالا وصفاء وأعطت لناظرها البدوي إحساسا بالجمال المتبقى من سماتها اللاتينية.

تحفظ Geneviève لهم الجميل. وتذكر جيّدا لحظة فارقة في حياتها، حين ساهمت عفوية البادية على يد تركي ووالدته، في شفائها من لدغة عقرب الشمال الأفريقي، عبر خلطةٍ سحرية ورثتها الأسر المنتشرة عبر الخيام أبا عن جد.

وهبت تلك الخلطة البدوية العمر للراهبة، ودعتها مع جلوسها بالقرب من بيت الرّب غداة الأصيل، إلى مساءلة نفسها:

ما دعانا إلى غزو هؤلاء؟ ما المصير الذي ينتظرنا حينما يتاح لهم النيل من جنودنا وقادتهم؟، ولكنها ما تكاد تفعل، حتى تذوب تلك الأسئلة مع منظر الشمس، وهي تتكئ على الأفق حين الغروب.

لم تشغلها أسئلة المصير فحسب، بل أغرتها الخيام المغروسة على الأرض الباكية، وهي تراقب من بعيد عمائم أولئك الرجال بأعمارهم المتفاوتة، وهم يسيرون وبينهم والد تركي، زرافات ووحدانا تحتضنهم بألفة وديمومة قناديرهم البيضاء[1]، يرافقون - بخطى تعوّدت نبش الأرض- غياب شمس الصيف.

في الصيف، يقض تعب الحصاد مضاجعهم-وفيئه المهدى لسواهم- ويكسر قوامهم الطويلة النحيفة، "الضامرة كالسياط الناشفة من الشقا". لم تكن Geneviève تراهم على بابها، بل لم تحفل بزيارة أحد منهم غير "قايدهم"، المتردّد عليها كل موسم صيف، راغبا في وساطتها. وساطتها أن يدع شيئا من المحصول له ولعياله. وأي عيال؟ قبيلة بأكملها..

كانت إشارة الرّاهبة للقائد الفرنسي أكثر من سلطة دينية، وطاعتها واجبة على كل جندي فرنسي، وهي فوق ذلك من صميم عمله. عمل الثكنة العسكرية الصغيرة وصلوات الكنيسة هما جناحان لطائر السلطة الماكث في هذي الديار.

حينما تستأنس الراهبة بأول وثيقة تسلمتها من السلطات، تعلّقها في محفظتها، لتعيد قراءتها:

[1] -جمع دارج لكلمة "قندورة" وهي قميص فضفاض يشتهر به أهل المغرب العربي، وبالأخص قبائل أولاد نايل

- الأمر كله استشرافٌ للآتي، لا بد للجزائر -وحاسي بحبح عيّنتها الصغرى- ستظل فرنسية لغة ودينا.

لا أحد من ساكني القرية كان يجهل راهبة المحطة. ولا يجهلون كذلك تميزها في كل شيء، في المشي- والهمس والحديث والذوق، وبالأخص في الملبس. وما "السخاب"[2]، إلا شاهدٌ على ألمعيتها. إنه وسامٌ من عطر وعود يغلّف بوقارٍ صدرها، وصدور كل نساء بادية الهضاب. إنه يدفع مع كل صباح بخيوط العنبر، كأنه يطارد أشعة الشمس الصباحية في كل ركن من أركان الكنيسة.

ما إن تنقضي ساعات يوم الأحد الباكرة حتى تقترب خطوات تركي الحافية نحو بيت الرّب، كي يستنشق بشغفٍ عطر الرّاهبة الفرنسية، إذ لا تزال ذاكرته تحفظ أريجها، كما تحفظ بأثرٍ من ذهب صورة عينيها اللامعتين، وقد استودعت سرا إنسانيا آسرا وسحرا كونيا عجيبا. في ذلك الحين كاد الفتى أن يبشّر- من حوله من سكان الخيام القلة، أن تلك السيدة هي بعد في العشرين، ومحال أنها في بدايات الستين.

حاسي بحبح، هي محطة وكنيسة وبيت من اسمنت مسلح فرنسي نبت في الأرض كالفطر، تمارس فيه أقدم مهنة على وجه الأرض، لا يعرف أحد كيف جيء بزبائنها ولا بروّادها.

لا يدري تركي لِمَ تمثّلت ثلاثية المكان في هذه الآثار دون سواها. ولا يدعوه ذلك وقد جاوز الثمانين إلا سؤال نفسه:

- لم غاب المسجد عن تلك الأرض؟ أتختلف قدسيته عن تلك الأماكن؟ ربما؟

مرّت بضعة عشريات من حياة تركي، وكأنها قفزة فتى في الخامسة على أكمةٍ توثّق للصبا، أكمة أشبه بتلك القابعة في غرب القرية. كما أنه لا يدري لم يتردّد "القايد" على الكنيسة، تاركا رعاية ما تبقى له من نسل، وقد أبكر به بـ"عربية".

---

[2] - السخاب هو نوع من عطر العنبر ملفوفٍ في قماش رقيق تتزين به النساء في منطقة الجلفة

كانت سنوات الثلاثينيات في حاسي بحبح والجلفة قاسية، والإذاعات ترسل بنعي المئات بالوباء. لم يرحم "التيفوس" أم عربية. وما تلك الأم إلا مربّيتها البدوية، الممزوجة ملامحها بين الرأفة والسذاجة. تنسيها مربيتها في "روزالينا" أمها الحقيقة.

لا شخص غير المربية من يصف الحال:

- بالكاد تشعر عربية بأنس تلك اللاتينية وقربها، ولولا الملامح لكانتا غريبتين.

لم تكن "عربية" ابنة القايد فحسب، بل هي ابنة قبيلته. لم تترب كتركي وأمثاله وسط الخيام ولم تذق شظف العيش، ولم تشم رائحة الحملان إلا من بعيد. كانت عيون تركي ترقبها من بعيد. وقد ورثت الحبّ والشعر من الخيام التي لم تنظر إلى النجوم من فتحاتها.

*

ارتعد الفتى وهو ينظر إلى صراع الرجلين، ومنظرهما يكاد يعدم طمأنينته. لقد أرعبته صورة اللكمات والدّماء المتناثرة هنا وهناك. لم يدرك بعد وهو في هذا العمر الصغير ما الدماء وما الضرب وما اللكمات. كانت الكلمات واللّكمات الممزوجة بين العربية والفرنسية تشق الفضاء الراكد لهذه البلدة التي أمست محجا أسبوعيا لكل الأهالي في سوقها الشعبي الأشهر.

ما زال صدى صوت الأعجمي يسري إلى ذاكرة تركي، بعد أن سمع دويّ بندقيته الفرنسية وهي تبعث بلهيبها إلى صدر البدوي، غابت عن ذاكرة تركي صورة الرجل، ولم يرسخ فيها غير نزيفه وهو ملقى على الأرض، ومن حوله بعض أفراد ينظر كل منهم إلى الآخر، يتباعدون ببطء من مسرح الجريمة، ويبعث بعضهم بتنهدات بالكاد سمعها تركي:

مسكين لعربي...الله يرحمه، لا غنم بقيت ولا حياة.

أنهى السلاح الفتّاك حياة الرّجل العربي، ومعه انتهى المشهد المؤلم الذي يمر على ذاكرة تركي من حين إلى حين. وعادت عقارب الساعة إلى الوراء.

كانت بدايات عمره هي القرن الأول لرحلة جيوش الشمال إلى الجنوب. مضى على قدوم فرنسا مدجّجة بالسلاح إلى هنا قرن أو أكثر بقليل.

لا زال وهو يقترب من التسعين، أو يكاد، يرمم بصمات الدّهر المغمّسة بكثير من التعاسة. كانت لحظة الجريمة تلك موجعة لكيانه الطفولي، ولا زالت ذاكرته تستحضر الدّماء والصمت الرّهيب الذي أردف الصراع، كأنه صراع الأزل.

بيد أن ما جعله يتناسى إلى حين تلك الساعة، هو ساعة أخرى. إنها لحظة افتتاح سوق البلدة، ولم تك في الواقع بلدة بالمعنى الحرفي للكلمة، تلك الديار التي كانت تتباعد خيامها عن بعضها بأمتار تصل إلى المئات، بين خيمة وأخرى. كان أول يوم ذلك السوق هو أحد أيام الخميس من خريف 1930.

مضت قرابة التسعين عاما على لحظة ميلاد العجوز البدوي.

استدار العجوز من على فراشه، وهو يواجه الممرض الشاب. لم ينس البتة أن نضارة الشباب التي أنقذته، وانتشلته من لحظة السقوط من على جرفٍ قرب إحدى بوابات السوق الأسبوعي.

*

احتشد سوق حاسي بحبح بالوافدين من مختلف الأعمار والأمصار وكعادتها كل عيد لم تعد المدينة، التي تحتفل بذكرى سوقها الثمانين، تطيق كثرة الزائرين وضجيج المتسوقين القادمين من كل شطر ومكان من الجزائر الواسعة الأرجاء.

لا تخطئ عين المبصر إلى أرقام المركبات القادمة من كل الولايات، دون استثناء، وبعضها ما زال يحمل ترقيما جديدا على "الزيرو" لعام 2015 والبعض الآخر لأنواعٍ لم ترها عيون بعضهم إلا في معرض العاصمة الأخير للسيارات ودرّته لا شك البورش 911. لم يكن بمقدور أحد أن يتخيل أن تأتي إلى سوق الخميس المتخم بالنّاس والأنعام والسلع سيّارات من تونس وهي المتاخمة لسوق أهراس، الإقليم الأوحد المنافس للحم الضأن لمنطقة أولاد نايل.

اكتظت طرقات المدينة، ونافست رائحة الشتاء والرذاذ روائح الأنعام المنتشرة في فضاء المدينة خلف الرّعاة، القادمين من مدخل المدينة الشمالي، كأولئك الوافدين وهم يقفون على طابور الانتظار داخل سياراتهم المختلفة الأنواع والألوان، على مقربة من رجال الأمن "الشرطة"، وكل ينتظر دوره للولوج إلى أرض الأحلام والأنعام!

- دعني أمرّ رجاء، لقد قدمت من العاصمة من الثانية صباحا..

هكذا قال السائق المتعب أمام أحد رجال الأمن، راجيا منه السماح له بالمرور، بعد أن أدرك مجددا أن مدة تأمين سيارته قد انتهى آخر أجلها منذ يومين.

أعاد رجل الأمن التحديق في الوثيقة وكأنه ينتظر جملة ما، كي تقنعه بالعدول عن معاقبة السائق، وتركه يمر إلى جنة الأنعام!

- إنها أيام عيد، رجاء دعني أمر..

استسلم الشرطي –كعادته في أيام المناسبات- لدعاء العاصمي، وتركه يعبر رفقة أنيس طريقه. وإذ بمحرك السيارة الفرنسية بوقودها الديزل تزمجر فرحا بعبور الحاجز ، وكأن ما ينفثه عادمها أمل في تحقيق رغبة الجدّة،وقد ألحت على الابن والحفيد إحضار كبش العيد من موطنه الأصلي لا غير. لا زالت كلماتها ترن في آذانهما، بعدما قطعا 250 كيلو مترا نحو الجنوب:

- لن أرضى بأقل من كبش سوق بحبح، والأهم عندي قرونه الممتدة إلى السماء!

غير بعيد عن مدخل المدينة، يقبع تركي صاحب الثمانين حولا أو يزيد، داخل أحد غرف مستشفاها الأوحد، وهو يقع على ربوتها الشمالية الأولى.

استدار العجوز من على فراشه، وهو يواجه محمدا، الممرض الشاب الذي انتشله بذراع قوية من موت محقق، غداة سقوطه الحرّ على إحدى بوابات السوق المهترئة.

نظر بعين الشيخوخة إلى صاحب تلك العيون الطامحة للحياة، قائلا بشيء من الإرهاق:

- لم تكن بهذه البلدة، كل هذه المباني. وحتى هذا المستشفى لم يكن إلا ربوة منسية كانت إلى حين مزارا لمن لا مأوى له...كانت بالفعل قفارا.

تقدّم الشاب بضع خطوات خارج غرفة العجوز التي يتقاسمها مع مريض آخر، ليرعى غيره من المرضى، ولكنه يحفظ حنينا خاصا إلى العجوز وحديثه. حديثٌ يغريه بمسابقة الخطوات للعودة سريعا. لم يعهد محمد مثل هذه العجلة، يغلب عليه الهدوء والروية، متزنا في حديثه ومشيته وفي سماعه. دعت خطوات محمّد السريعة صديقه عمر إلى أن يبعث إليه بالسؤال، وهما يسيران بمئزريهما الأبيضين في الرواق، الذي تفوح منه روائح ممزوجة بعضها بالأدوية وأخرى ببعض الطعام، الذي يحمله الزائرون عادة إلى ذويهم المرضى:

- لم كل هذه العجلة ؟

- حديث العجوز مغرٍ يا صديقي وقد أغراني حقا بالبقاء إلى جانبه..

- من؟ العجوز الذي سقط البارحة؟

- نعم..

- أتشفق عليه لنجاته من غيبوبة، كادت تودي به؟ أم هناك توصية من صديق؟ (وقد علت ابتسامة على شفتي عمر)

- نعم أشفقت على الرجل

- ما قصة سقوطه؟

- لقد كان متوجها باكرا إلى السوق..

- السوق؟ وما الذي ذهب بك إليه؟ أعلم أنك لم تزره قط في حياتك..

- نعم. لم أزر السوق طوال حياتي..

لم يدرك عمر أن السوق الذي كان مجرد كلمة مبهمة في قاموس صديقه، هو أول مكان رسم وعي تركي، الذي شهد -وهو من القلة بالتأكيد- على يوم افتتاحه.

يدرك أهل حاسي بحبح مكانة سوقهم، لأنهم يعرفون السبب وراء وفود الباعة والمشترين إليه. يأتون من شرق البلاد وغربها، لا يمنعهم برد الشتاء ولا توقفهم حرارة هذا البادية، إنه السوق الأسبوعي الساحر. يسحر عيون الرّجال، التي لم تكن في الماضي لا تبدي شغفها إلا لعيون المها البدوية كعيون عرْبيه ساحرة تركي، الذي جحد غرامها وكتم سهم الكلف في كبده الثمانينية الآن.

ليست عرْبيه امرأة عادية إنها المرأة. إنها لا ريب درّة نساء البادية وهي المرتحلة بين خيامٍ عريقة، تبوح بالسّر آناء الغروب والشروق، كانت عيونها تبوح بكل ذلك لـ تركي وهو يسير إلى السوق بخطى هادئة، كانت تبوح في الغياب عندما بات الحضور كأجنحة القطا، منقرضا وهو في أرضه. كان تركي شاعرا ولا يزال، لم يعرف المرأة إلا في القصيدة، وبين حنايا أبيات النسيب التي ينبض بها قلب البادية:

حـــامت فـيــه لطيار صامت و مـرد   سكان الأوكار للحـاير ترفـيـــه
يـا عجبـي من زين شوافو يـسعـد   جنات الفردوس في لأرض تـشبـيـه
عجلني منها الخاطر راح و صــد   فـرفـر عقب صباح بـرامه ماديـه
في واد الـمــلاح موقـنـا لا بــد   واد الرحمـة شاق السهل مـرويـه

تغريه مع الصبح أنفاس أكمة البلدة، حينما يقترب منها متأملا تخوم الدّيار، ومع المساء يدفعه الغروب، كعديد الأسر البدوية القابعة في تلك الخيام في سالف الزمان، وقد حرمت لسنين عديدة الكلأ والصحة وأنفاس الحرّية.

كان سوق البلدة كالبحيرة العذبة المذاق، وحواشيه طعم لمحبّي المال حبّهم الجم، ولمحبّي البضائع، وقد كان ولا زال أجمل مكان لموّالي المنطقة وهم طبقة الباعة الكبار للأنعام.

لم يشخ السوق بعد رغم أجياله التي شاخت، ومرّت عليه. لقد ولد باكرا في زمن كان اللسان الفرنسي هو المهيمن، لسان ساهم روّاده في نشره على كل صعيد، عبر كل مدرسة وناد. لم يكن السوق رغم الابكار في افتتاحه هو المكان الأعتق في حاسي بحبح، بل تزامن مع بعث أول صف دراسي بالمعنى الحديث للفظة القديمة، صفٌ لا يكاد يحتفي إلا ببضعة أسماء، أغلبهم ينحدرون من أبناء صفوة الأهالي، من المشتغلين بالإدارة الفرنسية في طبقتها الثانية أو الثالثة. لم يك تركي من أولئك ولكنه نال شيئا من الحرف اللاتيني، كما نال على ندرة ذلك حظا آخر من الكتاتيب المحشوة بالألواح القرآنية. مكرمة التعليم درة لم ينلها الكثير من "أتراب" تركي وصفوة صحبه كبن داود.

اقترب الشاب من تركي الجالس على فراشه والذي بدا على غير ما كان عليه بالأمس، مليئا بالنشاط والحياة. أرسل إليه تحية الصباح، ومعها إشارة باقتراب موعد المغادرة.

أجاب تركي:

- أنتظر أخي، وهو في طريقه إلي ...

اكتشف الشاب أن للعجوز أخا، لم يتح له رؤيته بالأمس. ولم يجد مع ذلك حرجا من سؤال تركي:

- يا سيدي لم تخبرني حينما سألتك عن أي قريب لك؟

صمت العجوز وكأن بالسؤال لا يعنيه كثيرا. وراح يشير إلى الشاب كي يعينه على القيام من على سريره، محاولا على ما يبدو اختبار صلابة قدميه، اللتين احترقتا شوقا إلى "عربية" وهي تفر من مصيرها المحتوم، واللتان لم تطاوعاه الآن على تجاوز تلك السلالم المتاخمة للسوق، وقد كانتا حافيتين منذ ثمانين عاما. ربما هي بركة عيد الأضحى الذي اقترب بفرح وسرور، هي ما حمته وحمت قدميه.

للعيد في هذي الديار وفي سوقها مذاق خاص. إذ كلما اقترب -بعد انتظار حول كامل- إلا ورأيت الناس يتزاحمون داخل شطره المخصص للأنعام متلهفين إلى إطلالته وهلال لحمه الشهي، كي يروا ويدهشوا وقد يقتنون -في النّادر- من تلك الخيرات ما شاء لهم الله ذلك. لم تك تلك الشياه ولا العجول هدفا لعيون ساكني حاسي بحبح وحي المحطة القريب فحسب، رغم أن كثيرا منهم من القلة التي يمكّنها القدر من شراء الأضحية. أضحية تختصر تلك البشارة التي ترجعهم -وهم **يستحضرون** شعيرتها لتضحية النبي الأب بابنه إرضاء لله- إلى جدّهم وجدّ رسل الديانات الموحّدة.

كم من مرّة تساءل تركي من أعماقه المتأملة، عن سرّ تفرد أبناء إسماعيل بهذه الأضحية، ولم لا يكون الأمر كذلك مع النصارى وأبناء إسرائيل. لم يك هذا هو سؤاله -الوجودي- الأوحد، وهو الأوحد من أهله من أتيح له -حافيا- الدّراسة في مدرسة البلدة الوحيدة لموسم واحد. كان ذلك الموسم في خريف 1941. إنه عام قاس وموسم مؤلم، بقيت كثير من وخزاته تحفر بقايا ذاكرته، وأكثر ما بقي محفورا بها هو ميسيو "توني".

أعاد الشاب طرح السؤال على تركي، بعد أن لاحظ عين العجوز وهي تفرّ به خارج المستشفى وربما خارج زمنهما:

- لا زلت أذكر عندما وطئت أقدام السيد **توني** أرض محطة حاسي بحبح في 1941، لم تكن المحطة هي **الصرح** الوحيد، فقد انضمت إلى كنيسة و"بار" هكذا يسمي الفرنسيون الحانة.

بدت لفظة "**بار**" لمحمد عادية في معجمه الحديث، وإن كان بعيدا عن البار كبعده عن السوق، فهو من أشد الشباب إدراكا **لتفشي** ظاهرة البارات على الهواء الطلق، بعيد الثانية صباحا. لم ير فيما **مضى** حجم القارورات الملقاة على قارعة الطريق من صنوف **الشراب** المتواضع كما يراها في السنوات الأخيرة. لم يستغرب ذلك لأن المستشفى ما فتئ يستقبل جثثا وأجساما اختلطت دماء بعضهم الشابة بدماء الشراب الأزلي.

ليضيف تركي مجددا:

- لفظة البار بتفخيم "الباء" والرّاء معا أقرب إلى ميلاد كلمة تمزج بين نداء الرّاعي لأنعامه، ونبرة فرنسية للراء "غاء". هكذا بدت لي! أو تراها تأثيرات البادية حيث عشت على كل تشبيه أصفه. فذاكرتي ما عادت تحفظ وهي في هذا العمر إلا عددا من الكلمات كلها للرعي والأغنام. تعود لمرحلة الصبا البعيدة.

صبا تركي موغل في السنين. لم تكن حينئذ حاسي بحبح إلا قفارا، كانت تخومها تغري الطيور كما تغري أفرادها القلة. كانت المياه فيها -على قلّتها- مهربا لأفراده ولطيور القطا، وقد كانت كسحاب الشتاء أسرابا أسرابا. كانت أجنحتها تغري الفتى، وتذهب بعقله الصغير إلى اتساع السماء والفضاء، بل لا تزال طقطقة أجنحتها مكدّسة بسخاء على بساط ذاكرته، المحشوة على امتداد الحقب، بكل الصور. يدعوه صوت القطا وأجنحتها وكثير من مفاحصها إلى السكينة والدّعة والهدوء.

*

لم تكن المحطّة ببعيدة عن كنيسة الراهبة Geneviève. ولم يكن معمارها المهيب والمختلف غريبا على والدة تركي وهي وحيدة والديها فقد تعوّدت على رؤيتها من حين إلى حين حينما تطارد خطوات الزوج وهما في رحلة البحث عن الكلأ لبضعة خراف هزيلة. كانت الكنيسة تتربع على 400 متر مربع، لا تختلف عن سابقتها بمدينة الجلفة مقر المقاطعة والتي تبعد عن السوق وأهله بحوالي 50 كيلومترا إلى الجنوب.

لا زال تركي يذكر على نغمٍ عميق في عوالمه الدّاخلية الصدى والانطباع الذي كان له مستقبِلا، رغم فارق السن، وفوارق الاعتقاد الموروثة أبا عن جد. ما زال تركي لحد الساعة يجهل صفة ذلك الصدى، الذي رافق خطواته الأولى بأقدام حافية، وبيدين لا تملكان إلاّ عرقا بدويا خالصا، قد يمتزج مع شيء من خبز الشعير المشبع بخجل لمعدته العذراء. أما خبز السيدة *Geneviève* فقد كان بالكاد يشبعه خلال ساعات الجوع والقحط. كان خبز المسيحية تلك مقدّسا فعلا، بدا له أن خبز السيد المسيح ما زال ينقل البركة من وطن إلى آخر.

- ما جاء بك يا تركي؟

استفاق تركي من دهشة الكنيسة على صوت راعيتها، وهي تبعث إليه بالسؤال بنبرة فرنسية، فهم دلالتها عبر آخر فونيم. وكان الصمت جوابه.

جدّدت الرّاهبة طلبها عبر إشارة هادئة:

- اقترب يا فتى...خذ هذه لوالدتك

على غير العادة، شعر تركي بشيء من المرارة وبانكسار شديد، وهو يبصر يديها وهما يحملان خبزا، بدا له غير دافئ. خرج الفتى مسرعا، تاركا السيدة في دهشتها. انتقل إلى خارج الكنيسة نحو خيامه البعيدة، بخطى سريعة تحمل كثيرا من الوجل والخوف والاضطراب. اتجه إلى الخيمة، وأي خيمة؟ بالكاد قطعة من القماش عريضة المساحة، طوتها تقلبات الزمن بكثير من المعاناة، ولكنها رغم ذلك تحفظ بين جنباتها دفء الأسرة الصغيرة، وبين أعمدتها الخشبية ذكريات، يضفي عليها لونها الأسود سحر الليل، ويعود بالأسرة إلى تلويح الراحلين والمرتحلين، بمناديل تقاسم اللون الآخر لها، ذلك الأحمر القاني الباعث بأنفاس الغسق، وهي تضفي على المكان وأنفاس الوالدة شيئا من القلق، برز حينما وصل تركي إلى المضارب:

- أين كنت يا تركي؟

بدا له لأول مرة أن أسمه أعجميا، وبالكاد استرجع أنفاسه وهو يجيبها:

- في الكنيسة!

أخذت منه لفظة الكنيسة جهدا جبّارا، كي يكتم صراخه بعد ضربة بدت موجعة على رأسه الفتي، وأخرى على مؤخرته بيدٍ كانت أقرب إلى سوطٍ وهي يد أم وليس يد أب. مع الصمت المشوب بالأنين انطلق صوت والدة تركي:

- أشّت...صه!

لم تنس الأم وهي موجعة بما اقترفت، أن الفتى لا يزال صغيرا كي يتحمل كل هذا التأنيب الذي ترجمه صوت ساعدها البدوي. ولكنها سرعان ما أخذته إلى أحد أركان تلك الخيمة، وقد امتزجت فيها عديد الروائح بين زواياها. فيها ما هو من أعشاب البادية الفوّاحة، وأخرى ممزوجة ببقايا بنّ قد لا يكفي إلا لفنجان لوالد تركي من حين إلى حين مع أمسيات حاسي بحبح.

بعد أن اقترب من صدرها الطيب، اشتم منه بساطة الديار وحنينها إلى الرّاحلين عن الحياة من الأجداد والآباء. حينها انفجر الفتى باكيا، وقد استطاع رغم بواكير العمر إدراك كل شيء من حوله. يدرك تركي الصغير أن أحاديث سد الرمق لا تنقطع خلال حديث والديه. يدرك كذلك أن لفظة الكنيسة و"الرّومي" تنقض وضوء الطّاهرين من أمثال الوالد، وتفسد جلسة المؤمنين.

كانت المحطة بعيدة عن خيام تركي وأهله، وهي بشكلها الأوربي تعطي الانطباع بغربتها عن أرض المنشأ، يرتفع جدارها ليرسم طابقين، يعلوهما سقف من قرميد تزينه ثمان مداخن، أربع منها من جهة الشرق، ونظيرتها من الجهة الغربية، وقد حفر في الجدار المقابل للخط الحديدي الحامل للقطار القادم من الشمال اسم المحطة بالفرنسية وبالأسفل توثيق للتأريخ. غير أن صفارات القطار وهو ينفث عبر مدخنته الفولاذية، دخانه الفحمي معلنا ساعات الفجر الأولى قبيل أن ترسل الشمس أشعتها على الهضاب البعيدة، تعين الأهالي على إدراك الزمن وتحديث مفهومه، وهم لا يملكون ساعات لتدقيق مواعيدهم مع بداية كل يوم. أهالٍ فقيرة هي ذخيرتهم لموسم الشتاء القارص. إشارات من مثل تحضير فنجان القهوة الصباحي. إنها الدّليل الحضاري أيضا لدقة قدوم القطار إلى محطة حاسي بحبح فالصفارات تبعث إلى أهل الخيام دقّات الخامسة صباحا بالضبط، قد لا يكون ارتياب تقدّم الساعة أو تأخرها أكثر من ثوانٍ.

- إن توقيت القطار دقيق جدا كساعة أخي سالم.

هذا ما كان يكرره والد تركي أمام والدته، حينما يستحضران المحطة مع كل حديث. كان والده طويل القامة نسبيا، ونحيف الهيكل والوجه، لكنه رغم ذلك فإن الله وهبه ساعدين قويين يبعثان بإشارات الاتجاه ومكان الكلأ لمواشيه القليلة.

لا زال تركي يذكر، كيف كان والده يخفي أثناء أحاديثه الكثيرة لوالدته فاطمة ذلك الأسى المصاحب لتجاعيد تبدو لعيون الفتى فحسب، قد يكون مردّه -بعدما وعى تركي ذلك لاحقا- إلى غياب أخيه سالم عن الدّيار.

لقد أخذته القوات الفرنسية إلى حيث الغياب المطلق، أو العودة المفاجئة.

كان سالم على غير حال أخيه البكر قوي البنية، صلبا وافر الطول، قليل الحديث جهوري الصوت. وربما ما أغرى السلطات على أخذه التزامه الشديد بالأوامر، لكأنه من الغرب البعيد وليس شرقيا.، كمسحات وجهه الكثيرة الاحمرار، ولولا سواد شعره الممزوج بشيء من الشيب لكان صورة آرية صغيرة داخل إطار الخيام السامية.

- شيب الصغر مليء بالتفاصيل

هكذا كانت مقولاته، مع ذلك الغموض فقد كان كشيبه الذي بدأ يشعل رأسه الشاب، غزير الحياة، باعث على الوقار.

مضى سالم تاركا الخيمة -التي تجاورها كثيرات لأبناء عمومته- بعيدا عن حاسي بحبح، وعن محطتها الوليدة التي حملته بأمرٍ من قائد المنطقة العسكرية الفرنسي نحو الشمال الجزائري.

انتقل من عاصمة الواحات الأغواط بعد أن قضى فيها زمنا مليئا بكل جميل إلى عاصمة الوطن السليب، قبيل أسبوع من ذلك. ساعتها تنبأت فاطمة والدة تركي أمام زوجة سالم بآتي الزمن قائلة:

- أخشى أن عودته السريعة من الأغواط، قد يتبعها غياب طويل..؟

مع بدايات الأربعينيات، غاب سالم عن هدوء الخيام، وراح في زحام أوامر فرنسا، تاركا وراءه زوجته خيرة، وهي ترتدي ثياب الوفاء والجمال، وفي رقبتها البدوية طفل أخذ الكثير من ملاحم الأب الغائب.

لا زال تركي –وهو في أرذل العمر- يذكر تلك التفاصيل. تفاصيل زادته تمسكا بالحياة، حينما كان عمّه في أيامٍ خلت يطارد أغنامه، ويضطر في بعض الأحايين إلى الاستعانة به –وقد أدمن مرافقته- في توجيه مسارها عبر أحجارٍ يرميها شمالا أو يمينا. يعود فضل قوة تلك السواعد إلى تعوّده الرمي مع الضحى والمساء. ولولا شيء من أثر الزّمن في تجاعيد الوجه والعظام بدت من ثقل خطواته، لكان شابا في الأربعين! فهو في قوامٍ لا يزال يعتمد فيه على نفسه، في كل شيء حتى في اختيار أضحية العيد والتي كانت السبب في أن ولج غير واعٍ إلى مستشفى المدينة.

يبعد المستشفى عن المدينة بمئات الأمتار إلى الشمال، وقد اختار له مهندسه الهولندي عبر شركة بوويغ للبناء، ربوة تصلها أولى زخات المطر والتي بدت مستعصية شحيحة في خريف هذا العام وشتائه. يرتبط المطر في هذه الديار باللحم وبوزن الماشية وسعرها، إذ هو منوط بخضرة الأرض والخضرة بنت الماء، والماء رصيد الكلأ والكلأ إكسير الحياة.

إن الغيث -وهو نعت المطر للمتفائلين- مفتاح للكلأ ولبورصة سوق حاسي بحبح العتيق. بورصة الأنعام لا تعرف معيارا مع اقتراب العيد، وهي غالية لاهبة مع موسم القحط، ورغم ذلك لم تثبط من عزيمة تركي في اقتناء أجود ما تقع عليه عيناه من ماشية، ولأول مرّة في حياته سيقتنيها لسواه، لأخيه الحامل لملامح العم سالم. كأنه عرفان وذكرى للعم سالم، المغامر الأوحد في سلالة العائلة الصغيرة.

كثيرة هي الأحيان التي كانت تنادي فيها الأم فاطمة تركي مع سنوات الطفولة بـ سالم. بقي شقيق تركي في الديار، ولكن عمّهما لم يعد إليها بعد. ظل تركي يحفظ في ذاكرته اسم سالم. كلما بدا له أنه نسي مصير العم وأحيانا حوادث الغياب عن الدّيار، أرجعه موقف أو عادت به قصة إلى إحياء ذكراه، لم يقطعه عنه أو يكاد إلا الممرض الشاب حينما أقبل عليه ليطمئن على حالته، وقد استشعر على ما يبدو وحدة الشيخ، في ساعات الليل الموحش، ويزيد من وحشته وألمه أنين المرضى في الغرف المجاورة، لم يعر تركي للأنين عمرا ولا سنا ولا يميز بين جنس المتألمين. يزول التمييز بين

الجرحى عند الألم، تماما كليل المستشفى الذي لا دعة فيه ولا سكون. وهكذا قال تركي لممرضه:

- لا سكون لليل مع وحيد مثلي.

جملةٌ من هرمٍ اعتراه ألم الدّهر والمرض. وبدا من خلالها للممرض أنه أمام فيلسوف. عبارات تركي وسيل حكيه أعطى ذلك الانطباع للشاب، ودفعه لمواصلة الحديث وتحفيزه على الكلام:

- يبدو أنك عانيت الكثير يا سي تركي؟

اختصر زفيرٌ من الضياع شيئا من جواب تركي:

- لا تستطيع أن تتصور معاناة شخص مع وحدته. يا بني!

كان صمت الشاب إقرارا بما يقوله العجوز. ومع إغراء السماع وتشويق تقليب أحداث الزمن، اختار الشاب أن يدع الحديث يأخذ مجراه وعبر طأطأة الرأس أوحى بالانتباه:

- في طفولتنا لم نكن نستطيع النوم في ليال كثيرة.

- لم؟

- ثلاثةٌ لا يعرفون النّوم: جائع وخائف...وبردان.

سكت تركي مليا وكأنه يستحضر الشاهد للحديث، وبعث به قائلا: "ولو تُرك القطا ليلا لناما".

- كان شتاؤنا أكثر فصول العام قسوة وجبروتا، وكان الجوع أكثر ما عانيناه، فهو كالمرض بل هو أشد. إنه الكفر بعينه. كان الأطفال في سنوات الثلاثينيات والأربعينيات ممن عرفت لا يعرفون خفا ولا حذاء، كانوا عراة -بالمعنى الحرفي للكلمة- وسيان عندهم أيام الصيف والشتاء. كان الموت يا بني يزور الدّيار دون بكاء. كان الأكل مرة في اليوم رغدا ورفاهية ورغيف الشعير موطن الأمعاء الخاوية. من استطاع منا رؤية فاكهة بعض أسواق حاسي بحبح القديمة فقد أوتي نعمة ومتعة، ومن تذوّق حبّة من بلح الجنوب، كأنه تذوق حلاوة العمر مع العذارى.

راحت مخيلة الشيخ تسبح، بعدما استحضر عذراءه، وهو مدرك أن الزمن لن يعود. ترك ممرضه غارقا في شيء من الصمت دون أن يدري لم توقّف وكيف بالذكريات تلاحقه، وإن حاول يائسا تناسيها. عربيه تلاحقه، خطاها الثابتة تتبعه. ووالدها.. نعم والدها لا زالت ماسورة بندقيته محفورة في جزء من وجهه وذاكرته.

يتبعه خيالها، تطارده رائحتها غداة ساعات اللقاء بمحاذاة سوق الخميس – وهو مثله في ريعان الشباب وبدايات الفتوّة- بعيدا عن تلك العيون القليلة التي ترقب القطا وأجنحتها المسافرة إلى الفضاءات البعيدة المتاخمة لمملكة الحرية. بعيدة هي القطا عن عيون العرب والعجم. كل اللغات تصفها ولكن تعجز أن تطالها أيادي الفرنسيين المدجّجة بالبنادق، وسواعد العرب المحترقة بجمر التعاسة.

كانت "عربية" تطل على تركي، وفي عينيه يبرز جمالها الأخّاذ دون حنّاء أو أي كحلٍ للعيون، ومن خلال ثوبها الفضفاض، تقترب من السوق كأنها عجوز من الحي، وقد حنت ظهرها لتمويه من يمر بالقرب منها. تمشي وجلة دون أن تثير انتباه أحد، بين خيام قليلة متناثرة داخل سوق الماشية.

كان كل شيء فيها مموها: ثيابها، مشيتها، عصاها إلا جمالها الذي تدّخره لتركي. ولم يكن أحد يلحظ الأمر لأن الأمر بات عاديا أن تقتحم العجائز أطراف السوق للـ "طّلْبَهْ" أو التسول بلغة المحدثين، بعد سنواتٍ عجاف يغلّفها الجدب والحرب.

اقترب منها بن داود، وهو يشم فيها عطرا لا يقتنيه إلا أحب الناس إلى قلبه إنه عطر تركي. أدركت عربية أن صديق تركي عرفها، وهي المرّة الأولى التي تستشعر ذلك، كانت وجلة من أن يشعر أحدٌ بها، فقد استطاعت أن تسير بحرية داخل السوق دون أن يشك أحد أن ابنة القايد هي المحتمية بثوب القواعد من النساء. عزاؤها في هذا السوق –دون غيره- أن بن داود أقرب صديق لتركي بل هو الواحد. كانت ملامح بن داود أقرب إلى الصحراوية القحّة، ففيه سمرة تعطي الانطباع بلون البادية وليلها الطويل الحالم. لطالما كانت تلك السمرة مميزة وسط الفرنسيين

حينما يسيرون في البلدة الصغيرة، كلما قدم قائد جديد للمنطقة العسكرية.

كانت تلتقي تركي، يكسوها شغف اللقاء العذري قبيل أن ينفض السوق. تستند عليه دون أن يكون بمقدورها أن توهم نفسها بإخفاء شوقها إلى يديه، أمام بضعة مارّين يجهلون الظلّين معا. كان الموعد على رأس كل موسم أو أقل. موعد يطفئ -أو يكاد- نيران الأشواق ولهفة المحبّين. لا ينسى- وهو يسير إلى جنبها ارتداء مظلّه، القريب لونه من الأصفر الباهت. لم يكن ذلك اللون الباهت هو حال خفقان قلب تركي الذي بالكاد كان يصدّق أنه أمام عربية. عربية فقيدته وفقيدة هواه.

لم يكن غير بن داود من يعرف بحياة القلبين. ففي لحظات انتظار تركي لعربيته، تأخذه الخطوات نحو مقهى الخيمة، في قلب السوق مستمتعا بـ الحار من عند القاسي بن فرج القهوجي. وهي عديدة أسابيع السوق التي كان يأوي فيها بن داود إلى خيمة القاسي دون نقود. كانت المقهى الخيمة لقاء لمن لم يسبق لهم ضرب موعد.

عاد الممرض - من دهشة القصص- كما عاد تركي من ذكرياته، بعد أن طافا سويا عبر أحاديث الزمن إلى مستشفى حاسي بحبح على وقع صوت جديد تختبر أنينه جدران الصرح الهولندي من جديد. عاد الشاب مندهشا من حكايات ومعاناة من ثلاثينيات القرن البائد، محمّلا بقصص غريبة ومختلفة عن عالمه الشاب أشد الاختلاف.

- يا لها من عوالم موجعة

هكذا ساءل الشاب نفسه، وبدا أنه سبح في عوالم أخرى، وأنه بصدد فك شفرات معجم مختلف عن الذي يعرفه. لا يدرك الشاب ما الخيام؟ ولو أنه زار السوق، لأدرك ما كانت تعنيه بعض معانيها، من خيمة **عيسى** سليلة خيمة بن فرج تلك التي كان أصدقاء تركي يترددون عليها مع صباح كل خميس ليرتشفوا الحار وقد زهدوا في القهوة لا لشيء إلا لندرتها. ليس هذا فحسب، فقد بدا مبهورا وهو يتابع خيوط الزمن وشريط الحياة من ذاكرة تركي القوية، وهو لم يكن ساعتها إلا في الخامسة من العمر أو أقل. ليس من السهل على فتى في ذلك العمر تدوين كل شاردة وواردة.

قطع حديث تركي، وهو يغرف من ذهنه الكثير قدوم شقيقه. وقد اقترب مهديا التحية، بشفتين بدتا أكبر عمرا من تلك التي اعتاد تركي البوح بالعشق عبرها شعرا. تقدّم من الشاب وأخيه، وقد ألقى بالسلام دون حرارة الأهل. أخذ كرسيا من وسط غرفة بدت محاطة بفضاء بارد، وبها ملامح من التّعب كتعب المرضى وألمهم. فكما أن للمرضى -وهم بشر- تلك الأحاسيس، للغرفٍ ألوان من الأحاسيس تترجم شعورها بالبرد، الذي غزا عظام الحاضرين، قبل أن يهيمن على كل ركن من الغرفة.

أعطى البرد لشقيق تركي العذر كي يعيد الانزواء في برنوسه الوبري العتيق، وقد غابت عن المظهر عباءته البيضاء. ترجم جلوسه والتفافه داخل البرنوس كثيرا من التّعب، محاولا استجماع قوّته وحرفيته في تسوية عمامته وقد بدت أقرب إلى الشحوب منها إلى لونها الأبيض الناصح، عبر إعادة لفّها لتعود سيرتها الأولى. ومع كل استدارة منها على رأسه الحامل لكثير من التجارب، يبعث زفرات التّعب دون مقدرة على إخفائها، قائلا لشقيقه:

- لم أجد من يقلّني إليك. فأتيت ماشيا..
- ماشيا؟
- مع هذا السحاب الكثيف والطريق الطويل، سارعت الخطى كي أصل في الموعد.

أطبق الصمت لحينٍ على الحاضرين وعلى الغرفة دعا الشاب إلى مغادرتها، مغريا الشيخين على أخذ أريحيتهما في الحديث العائلي.

*

غرفة تخيلها الأخ تنتظر تأنيب تركي الذي يحفظ لأخيه مزيجا من الاحترام الذي يفرضه ترتيب الأعمار، وألفة تدعوه في أحايين كثيرة إلى أن يتطاول عليه. لقد خرج من البيت، بعد أن سمع من صديق تركي الخبر. وقد خفق قلبه لكأنه في طريقه إلى التوقف. وقلبه لم يعد بروح الصبا كي يطيل الخفقان وهو يسمع أن أخاه كاد يموت في المستشفى. ولولا شيء من الطمأنينة بعث بها المصدر ذاته، لكان العجوز يجاور أخاه في غرفته تلك.

سار بعد أن قطع الطريق الموصل من البيت الذي يتقاسمه مع تركي منذ عقود، في وسط حاسي بحبح، وهو بيت مناظر لسوقها العتيق في جناحه المخصص لبيع الفاكهة فحسب. استذكر الفاكهة واستذكر يوم القنبلة. حيث كان تركي نفسه أحد ضحاياها عندما تفرّق ساعتها السوق باكرا جدا –على غير العادة- ولأول مرّة في حاسي بحبح.

راح يسبح بخياله ويسائل نفسه: ما قصة تركي مع السوق؟

صمتت الذكريات، ودخل بعيد نصف ساعة من مغادرته البيت إلى أروقة المستشفى، وقد مضى على أذان الظهر نصف ساعة. بعد أن بقي الرجلان وحدهما، باغت تركي أخاه سائلا:

- لم لم تزرني بالأمس؟

تردّد البكر قبل أن يجيب أخاه:

- لولا صديقك بن داود لما عرفت الأمر صدّقني؟.. المهم أنك بخير..
- عموما الحمد لله.
- حدّثني عمّا جرى؟ ما الذي وقع لك؟
- كنت في طريقي إلى السوق..

قاطعه قبل أن يخوض في تلك البكرة:

- السوق؟ ما الذي دعاك إليه ألم تنس ما وقع لك، لقد كدت أن تموت؟
- يا سيدي! جئت تسمع ما جرى أم تؤنبني وتهاجمني كعادتك؟

كان جواب تركي الممزوج بشيء من الحدة إشارة إلى نسيان تلك الحادثة المؤلمة. والتي أحياها الأخ البكر على وقع يوم القنبلة. ولكنه سرعان ما عاد إلى هدوء فرضه عليه وضعه الصحي:

- الحكاية وما فيها، أن المرض -اللي شفته- حملني بسيارته الخاصة إلى المشفى بعدما وقعت بالقرب من مدخل السوق..

تابع سالم تفاصيل قصة أخيه، ولم يلتفت إلى اهتمام الأخ بهذا الشاب النبيل. تواصلت خطوات الزائرين لعيادة المرضى، الملقاة أجسادهم وهي تبعث بالأنين والألم إلى طبلتي أذني العجوزين، وهما في خضم استعادة الذكريات، التفت الشقيق وراح يبعث بسؤال، لم يُرد منه جوابا بقدر إحياء الحديث:

- ما الذي جعلك تبكر إلى السوق هذه المرة؟

لم يشأ تركي أن يرضي فضول شقيقه، ولكنه بعث بإشارة، فحواها رغبته في إهداء شيء من السوق إليه وإلى بنيه:

- أحببت شراء شيء للأولاد مع بركة عيد الأضحى..

يدرك الشقيقان بأن لفظ الأولاد يعني ضمنيا نوعا من الحسرة على بقاء الرجل وحيدا، دون من يرث الاسم أو اللقب.

في خضمّ الحديث، بعث الرّعد بصداه كأنه يشق دوام هدوء المستشفى وسكون المدينة في شطرها الشمالي.

اقتربت خطوات الشاب نحو غرفة تركي مجددا. ومع السلام تفقّد نبضات قلب الشيخ ومعه راقب كيس "السيروم"، المحشو بكل الحريرات ومع هذا الروتين أرسل الفتى نظرة إلى شقيق تركي قائلا على إثرها:

- لا تقلق يا حاج. سي تركي يتماثل سريعا للشفاء

- الحمد لله. رغم أنني أجهل ما يؤلمه..

- كل ما في الأمر أن ضغطه ارتفع فجأة، ولكن الحمد لله.. الأمر استقر الآن.

لم يشأ الشاب أن يجدّد إحياء حلقة الخوف التي أغلقها بن داود حينما نقل الخبر وفحواه. وأخفى عنهما أن تركي راح في غيبوبة لدقائق ولكن الله لطف به.

بعد أن دبّت الحركة من جديد في غرفة المريض، أرسل شقيقه سؤاله المباشر للممرض، بدا للكل مفاجئا:

- ابن من أنت يا وليدي؟
- ابن أحمد بن علي
- أحمد بن علي؟ من بيت بن لكبير؟!

بعث الفتى ابتسامة ساذجة قبل الإجابة:

- والله لا أدري!
- كيف لا تدري؟ هل جدّك علي بن لكبير؟
- كل ما أعرفه أن اسم العائلة هو عبد الله..
- نعم. ولكن نحن (الكبار) نميّز العوايل[3] بالجد الأكبر، وجدّكم الأكبر (على حد علمي) هو الشيخ الفاضل بلكبير.
- ماذا تعرف عنه يا لحاج؟

أرسل الشيخ عبر طأطأته للرأس تأكيدا وموافقة، ولم يدم السجال طويلا بين الجيلين، حتى استأذن الفتي في الانصراف، ليتيح للشقيق وقتا كي يرسل إلى تركي رسالة تستحضر ـ الماضي الجميل. ماضٍ بدا للأخ مفارقة غريبة:

- أسبق وعرفت من يكون؟

اشتعلت بمحاذاة مساحة الشيب المهيمن على قمته حيرة أخرى، وقال بعفوية:

- والله لم يخطر ببالي سؤاله... كما أنني تفاجأت بمعرفة جدّه.

لم ينتظر الشقيق طويلا قبل أن يقول:

- هو من عمومة "القايد"، أتذكر؟

ليجدّد سؤالا، استشف تركي مرارته سريعا:

---

[3] - الأسر، العائلات..

- أما زلت تذكرها؟

في هذه اللحظات كان الصمت رفيق تركي، وقد استشف منه الشقيق ما أراد قوله. كانت تنهداته اليائسة تنطق بما كان يسمعه على أمواج صوت القاهرة:

كيف أنسى ذكرياتي وهي أحلام حياتي

أحيا حديث الأخوين ذاكرة تركي، وكأنه رسم بدواة من الماضي أيام سنوات الشباب. سنوات الجمال، وسنوات السوق التي كانت كالجراح ولا زالت.

كلما حاول نسيان الأمر، دبتّ إلى ذاكرته حلقات من أحاديث السوق ولقاءاته، لقاءات مع ساحرة السوق وساحرته.

لم يكن غريبا أن يذكّره حديث شقيقه مع الممرض الشاب بفاتنة السوق الصغير، المحاط آنذاك بالنزر اليسير من الخيام، التي تعجز في أيام الشتاء عن صدّ زمهرير الرياح، وتجعل من بداخلها يحتسون ما بفناجينهم بلهفة للدفء وللبقاء رغم تواضع السقف. لا زال السوق رغم مرور عشرات السنين يحفظ مكان تلك الخيمة المسماة تجاوزا مقهى، غاب من كان يحضّر فيها الحار والقهوة والشاي، والآن جاء جيلٌ جديد ومنهم عيسى وقد مسك بعروة الشاربين.

ما زال سوق الخميس درّة مدينة حاسي بحبح، وما زال محجا للتجار من كل حدبٍ وصوب، وما زالت أصوات الباعة فيه واختلاف سلعهم تغري المشترين من أمثال بن داود والمارة من الشباب والكهول والشيوخ وهم على تخومه من أمثال تركي، الذي أشد ما يغريه وهو يهمّ برؤية هالة السوق والنّاس وهم يدخلون أبوابه الثلاثة هو خيمة **عيسى** حيث يحفل الرّائي بالمتسوقين. يستحضر- تركي في 2015 مشهد خيمة السوق في بدايات الخمسينيات ويستحضر معها المشهد المؤلم الذي غيره وغيّر كثيرا مما حلم به.

في خيمة عيسى ومقهاه متسوقون من مختلف الأعمار، محتشدون على حصائر، على الرغم من وجود كراسٍ عريضة، كتلك التي يضعها أطباء هذا الزمان في غرف الانتظار لمرضى لا يطيقون الجلوس. ربما ما يجعل الحصائر محبّبة لرواد الخيمة المقهى هو ما ينبعث منها من رائحة القهوة والشاي وكثير من الحار، المشروب المفضل لمن يتردّدون على المكان كل خميس.

مشروب الحار مختلف في الشكل والمذاق. هو مزيجٌ بين الماء وسائل منبّه وبعض السكر الذي قد يرخص أو يغلى تماشيا مع البورصات في العالم. اشتّق من اسمه الحر، ورغم هذا الطعم المهيمن والذي يحرق اللسان والحلق معا، إلا أن تميزه يعود إلى امتزاج مذاق الشاي والزعتر، مما يفيض على الشاربين بنكهة جديدة.هو إذن مزيج غريب كالمزيج الإنساني داخل خيمة البداوة.

بالخيمة ألوان من الناس بين غني وفقير، بين عفيف وحقير. ومن وسطها ينتقل صوت شاب ضاق ذرعا برجلٍ يتردّد عادة على السوق حاملا معه- مع القفة الغريبة- لحنا متواصلا نغمته الحاجة والتسوّل:

- كفّ عن السؤال يا أخي..

يواصل الشاب تبرمه، والناس من حوله **تحتسي** الحار، وتراقب دون أن يعيروه وألفاظه القاسية كبير اهتمام:

- يا راجل راك قادر على الخدمة..اخدم على روحك، السوق مليان بالخدايم

لم يكن مشهد الحّار، وهو يجعل المتذوقين يبعثون بزفير المتعة والرّضا بغريب عن ساعات السوق الأولى بالأخص خلال مواسم البرد القارص في حاسي بحبح.

وكم يدعو للألم رؤية الباعة الصغار وهم يحيطون بخيمة المقهى، وكلهم شغف بأن يدر عليهم يوم الخميس بيعا ينسيهم وعثاء الطريق كي يعيلوا بدراهم البيع الأهل وما أكثرهم، ويعينهم على نوائب الدّهر العسير.

وخارج الخيمة ترافق ارتشاف الحار، نداءات وصياح مختلفة النبرات، من مثل:

- هنا علاج الضرس .. هنا نهاية آلامها.

وتارة تسمع من بين حنايا المكان المخصص للألبسة المستعملة، لهفة بائعٍ شاب يحوز أصنافا من ألبسة "الشيفون" القادمة من كل بقعة من العالم قائلا:

- ثلاث "كنزات" بثمن واحدة...اقترب يا مسكين اقترب يا فقير اقترب..هنا حاجتك ليضيف بصوت آخر، وهو يحمل سروال جينز من ماركة لويس:

- وسروال شتوي بمعطفه بأقل من 100 دينار.

يواصل تركي كل ما حلّ بالسوق سماع هذا الصراخ الإشهاري، الذي يجعل الكثير من أمثاله، ممن لم يأخذوا بعد سهمهم من الشاي أو الحار الأسبوعي، يتدافعون نحو تلك الملابس ذات الرائحة اللاتينية المميزة، وذات الحالة الجيّدة برغم أن يدا أجنبية خدشتها أو قدما.

لا تكاد تخلو ساحة الملابس المستعملة- ذات موضات قديمة أو حديثة- من المشترين والزبائن. وعلى بعد أمتارٍ منها وعلى الهواء الطّلق تتزاحم الأقدام والأيادي نحو "درّة" السوق وأعلى زواياه لشراء الأضاحي.

*

كان يعرف لدى الكثيرين بسوق "لَقْلَمْ"[4]، ولدى الخاصة بسوق المال. أمسى المال كما كان في سابق عهده مقرونا برؤوس الماشية والأنعام. كانت الأنعام ولا زالت تاج محفظة رجال البادية، أين تحشى داخل الزريبات وكأنها أوراق نقدية من الذّهب، كلما أصيبت بمكروه أو كادت إلا وأصيبت قلوب مربيها بآلام وآلام.

تتزاحم في سوق الخميس كل من المواشي والعاملين عليها. وتقترب الخطى التي امتطت أبهى المراكب وأوسعها وأغلاها، تناطح الريح شتاء

[4] - الغنم بالدارجة المحلية

والغبار صيفا، لتقترب من ركن السوق الأكبر والأغلى. سوق الماشية هو عروس السوق كله، إذ لا يكاد يمضي أسبوع حتّى يحن البائع والمشتري إليه، وهي من المرّات النادرة ربما حيث لا خسارة في سوق!

لا تكاد تختلف الصفقات، ولا يجهل هدفها. وهي في العادة تتم باكرا أو تبدأ أولى شرارتها مع تباشير الفجر، وتبدأ في العادة بكلمة موروثة منذ سنة 1930، عندما يجرؤ المشتري، وإن لم يكن متمرسا بما فيه الكفاية بالقول:

- كم أعطوك في هذا الرأس؟
- لم يفتح الباب بعد.

لم يفتح باب البيع، ولكنه مع هذه الجملة أتاح للمارين والفضوليين ملاحظة بداية الصفقة.

- خذ فيها زوج ملاين؟
- زوج ملاين؟!

استفهام علا على شفاه الموّال القوي، تماما كصوته وأردف:

- نحن في 2015 ولسنا في سنوات الثلاثينيات!

إجابة عكست سريعا، اتجاه الصفقة، وحنكة البائع ولكنها لم تنه ذكاء المشتري الشاب حينما لاح ناظره إلى الفضاء قائلا:

- سأترك الصفقة لسواي إذن...!؟

جملة أعطت الانطباع أن المشتري وإن بدا متمرسا، بعث برغبة الشراء بعيدا، دعا فيها البائع على ما يبدو إلى أن يصبر طويلا.

صبر قد يطول. فنهار السوق ما زال في أوله.

لم يكد الشاب البدوي يغادر مسرح البيع حتّى جاء شيخ عوّض مكانه وبدت عليه سمات الوقار والهدوء. مع ناصية تعلو جسمه الطويل أرسل بصوتٍ فيه كثير من الدّفء سؤاله المكرر:

- كم أعطوك؟
- مرّ قبلك شاب...وبدا أنه لا يعرف السوق جيدا!
- بكم..يعني؟

- أحبذ أن أنتظر من يفتتح الباب بجدية..
- أخبرني أولا ما المبلغ المعطى قبلي؟

قبل أي إجابة، وجد الموّال نفسه متورطا بين صدقٍ فيما سمع عن قيمة شاته، وذكاءٍ للهروب من السؤال غير المحسوب:

- في الأسبوع الفائت، خرجت على مبلغ زوج ملاين ونصف.

حاول أن يعيد التوازن إلى صفقة بدت شبه فاشلة، عبر تذكير الزبون الخبير بسعر الماشية في آخر أسبوع.

لم يطل السجال بين الرّجلين، والذي دام لدقائق، حتى انتهى معه سقف المبادلة التجارية إلى سعر الأسبوع السابق، بعد إصرار البائع.

جس نبضِ السوق كانت عادة لدى الباعة والمشترين، عبر سؤالٍ عما استقرت عليه الأسعار للقاء الأخير ليكون عتبة للمبادلة التالية. كانت فلسفة السوق عبر هذا السؤال مدخلا للبورصة، ومرحلة متجذرة في أعماق هؤلاء البدويين.

غادر الشيخ وهو أكبر طرفي الصفقة سنا، تاركا وراءه وعدا بالشراء عبر لمسة لا تعرف إلا في هذا السوق الأسبوعي. تلك هي لمسة الشراء، وهي ما سحرت رواد السوق من غير ساكني حاسي بحبح ومنهم ذلك الشاب العاصمي، والذي حملته رغبة والدته لاقتناء أضحيته الموعودة، وكله حرص على تتبّع المواصفات ومراحل الصفقة المباركة.

*

عاد تركي إلى فراشه بعد أن فتح نافذة الغرفة، التي لم يكن متاحا له فتحها حينما كان يتقاسم جدرانها مع مريض آخر. كأنه مشتاق إلى هواء المدينة استنشق ملء رئتيه اللتين لم تذوقا السجائر قط، على عكس ما كانت عليه الحال مع من عاصروه، في حقبة كانت فيها رمزا للفتوة ومدعاة للافتخار، كما أنها رمز من رموز المدنية، والتي حملتها جيوش فرنسا إلى بلدان الشمال الإفريقي.

استحضر تركي كل تلك الحقبة، ومع لفحة ريح غريبة كغربته في هذا السن الطاعن، سرت إلى المكان بهدوء ورويـة، دعته إلى رؤية سرب من

القطا يمر على فضاءات الزمان والمكان. غالب على إثرها عينيه وهو يهمس لنفسه:

- هل تراه سرب من القطا حقا أم هي تخيلات هرم في أرذل العمر؟

يعرف تركي الخبير بالتضاريس وبتاريخ الدّيار، أنه مضى زمن طويل لم يعد فيه للقطاة مكان في هذه الربوع. لم يعد يراها –لا هو ولا أمثاله- منذ أكثر من أربعين عاما. ما عادت القرى تحفل بها منذ الستينيات ولا البادية المقفرة، تلك الخاوية إلا من قليل البشر ـ والشجر. لم ير مذاك أعشاش القطا ولا أودية الماء الضامرة كالسياط.

عاوده شغفه كرّة أخرى، وتتبع بعيون تحنّ إلى نضارة الشباب ووهج البصر ذلك السرب، وأطمأن إلى حدّة بصره عبر عدد القطا الفردي السابح في الفضاء بفخر الزائرين، وكأن بأجنحتها وهي تداعب الهواء تعيد إحياء ذكريات تركي مع ابنة شيخ القبيلة "عربية"، وهي مركونة بوجل في قلبه وعقله، وقد كادت السنين المتتابعة أن تطويها إلى غير رجعة.

ذكريات تركي قطعتها خطوات شاب اقتربت به من الغرفة، ومع السلام بدا أنه محمد رفيقه الدّائم:

- يبدو أنك استعدت اليوم نشاطك يا سي تركي!
- أي نشاط؟...أنا بالكاد أتحرك.
- الحركة يا سي تركي تعني الصحة. قل الحمد لله.
- الحمد لله. الحركة لأمثالي هي الحياة.
- لكنك لم تخبرني أين سكناك؟ كما أنني لم أر أولادك؟

لم يدر الشاب عبر سؤاله المباشر أنه بعث إلى سي تركي السؤال الجوهري، الذي يعيد تركي دوما إلى سنوات السوق الأولى وإلى ملامح "عربية" المنزوية خلف كواليس الزمن. إنه سؤال الشيخوخة والشباب.

- ليس لي أولاد.

جواب تركي اختصر القصة.

ولكن صحبته بالشاب أغرته بالتوازي إلى أن يترك الحديث يأخذ مجراه، وقد هيمنت عليه الديباجة البدوية. حديث بدأته همسات بعث

بها تركي بعد أن اتكأ، منتظرا عبرها قرار الطبيب الذي لا يكاد المرضى يرونه إلا قليلا. وقد يسمح له بالمغادرة والعودة إلى الأهل من الأخ وأبناء الأخ.

لم يدم صمت تركي طويلا حتى قطعه محمد، كأنه يستدرك:

- ربما يتأخر الطبيب اليوم يا سي تركي؟
- "ربي ورحمته" نحن في الانتظار
- لا تقلق، سيعود سريعا بعيد إجراء عملية في عيادته الخاصة.

دعا الجواب تركي إلى الاستلقاء على ظهره الهرم، وبشكل يغري على الاتكاء. ومع إغراء السرير المريح سبح الشيخ على وقع كلمات الشاب الهادئة، وقد اعتاد على ما يبدو على معجم الطب المعاصر، بدءا بالعمليات ومرورا إلى العيادات الخاصة. كيف لا؟ وله من قريبه كل التفاصيل.

لقد أحيا الممرض الشاب عبر جملته الأخير في جسد تركي الهرم ذكرى عمّه سالم. كان سالم في مقتبل العمر وفي ريعان الشباب حين أجريت له العملية عن الزائدة، كانت ساعتها أول عملية تعرفها العائلة بل وكل تلك الخيام البدوية.

كان خائفا من إجرائها. في العيادة قيل له دون تردّد إنها مسألة حياة أو موت.

هكذا أخبره شقيقه الذي يحمل الاسم نفسه. ليضيف بكثير من المرارة والفخر معا:

- كان شجاعا بحق.

لم يكن سالم، أول من أجرى تلك العملية ولا الأخير، والتي خلّفت في أعماقه بالغ الأثر، غير أنه كان أول من قبل المغامرة ووافق على إجرائها، تماما كما كان الأول من تلك العائلة من غامر بالالتحاق بالجيش الفرنسي. وكأنه بذاك التجنيد يفر من الرمضاء إلى النار، من الخيمة الوبرية إلى الاسمنت المسلح. لم يكن بإمكان أحد من أبناء تلك الدّيار البدوية الطافحة بالخيام وبأجوائها أن يتمرد على نمط حياتها، بالرغم من

قلة ذات اليد والفاقة فهي تظل العشيرة والموطئ والسكن. غير أن سالما تبرّم من كل ذلك وإن لم يبح به وراح يحاول مغامرا أن يغادر أعمدة تلك الخيام وفضاءاتها الشاقة إلى غير رجعة. لم تكن تلك الخيام تشكل بالنسبة إليه المهرب والملجأ والأفق الأزلي، وقد كانت كذلك لابن الأخ تركي، وهو يرنو إلى السقف الذي يغطّيه وغرفته العليلة، مستحضرا مع الشاب حكايات القرن الماضي وأي قرن. قرن رسمت فيه كل الحدود بين البلدان وشحذت فيه الحروب كل الأجساد الشابة وغير الشابة، والتي شحذ فيها على مرّ سنوات قاسية عود عمّه سالم.

غادر سالم إلى الأغواط وهو لا يحمل في يده البيضاء غير ورقة كتبتها Geneviève، كانت حروفها اللاتينية تتوّج وساطة إلى قائد منطقة الواحات العسكرية.

لم يكن وداع سالم سهلا. لم تعتد تلك العائلة الصغيرة وقد الفت كابرا عن كابر وداعة الحياة داخل خيمتها البالية، على فراق واحد منها، إلا في النزر اليسير، والقليل جدا. ولم تحفظ ذاكرة الكبير فيها صورة وداع أو شبه وداع، إن استثني شدّ الرحال إلى بلاد الحجاز من قريبٍ في باديتهم يكاد يكون من العمومة بعيدا!

رحل تاركا وراءه الأهل، وأعشاش القطا التي ترقب المكان وجلةً، لا تكاد تقوى على الحراك ولا التحليق في فضاءات حاسي بحبح وسمائها، كأنها بذلك حزينة على رحيل سالم هذا البدوي الغض، وعيونه الحجلية اللون التي تذكر الدّنيا بأجنحتها. إنه يحب القطا دون سواها من الطير، مثله مثل ابن أخيه تركي.

ودّع المكان والخيام، وتلك الأثافي التي نصبت بجانبها، واقترب من محطّة قطار الشمال وفي يده زوّادته القليلة المأكل والملبس، والمحشوة بالذكريات والأشواق. غادر سالم والدّيار تودّعه على أجنحة القطا. لم يعد يذكره بالديار في لحظة مسير القطار غير المحطة، الفرنسية الشّاهد، العربية السواعد. والتي عبرها يبعث بالسلام إلى ما تبقى من أثر وأرواح.

كانت محطة حاسي بحبح هي نافذة أهلها إلى الفضاء الآخر، إلى العالم الممتدّ وراء الحدود، وعبر السماء الرحبة.

صمتت ذاكرة تركي، وهي تسمع وقع عصاً ذكّرته ببصمة أهل البادية في المسير، وقد كان مثل الكثير منهم، لا يحفل بأنين قدميه وهي تبعث حافية بتحدّيها للفح الحر الممتد من شهر مايو إلى أواخر أغسطس، ولا لقرّ الشتاء الطويل الممتد أشهرا طويلة، في مطالعها يكسو الثلج أكمات البلدة الصغيرة وخيامها.

اقتربت تلك الخطوات التي بعثت بإشاراتها عبر ضربات العصا على الأرض المتعبة، في رواق مستشفى حاسي بحبح، هذه المدينة التي تبعد عن العاصمة البيضاء بـ 250 كيلومترا والتي كبرت وهرمت مثل تركي، واتسعت أطرافها كسوقها ومحطّتها العتيقة، التي أمست مهجورة وكأنها تلوّن الزمن الماضي ببقايا من يأس وألم، يعكسه العمران وامتداد البنيان. لم يعد للمحطة نصيبها من ذاك العمر ولا لخطى ذلك الإنسان.

لم يطرق العجوز الباب، ولم يُسمع كذلك سلامٌ منه كالدّاخلين إلى المرضى ولولا أنه ما زال يلوّح بعصاه لكان التّعب أول الأعذار، ولكن الصوت دنا إلى طبلة أذن تركي سلسا:

- قالوا لي إنك في الـ "كوما[5]"!

طفت على شفتي تركي ابتسامة يبدو أن صديقه ورفيق الصبا بن داود عرف دواخلها:

- لم يخطئوا يا سي بن داود.. كادت الـ "الكوما" تأخذ صاحبك الهرم.
- ولكنك والحمد لله بخير.
- الحمد لله.

طفا لثوانٍ على فضاء الغرفة فراغٌ من الصمت لعب به هبوب نسمةٍ من الرياح ما أخف منها إلا الهواء. وبينما الحال كذلك وكل منهما يبصر الآخر، علت ابتسامة على شفتي بن داود، بعد تلك البكر التي فرحت بلقاء تركي:

- يبدو أن عزوبيتك شدّت من عظمك..

علت ضحكة تركي وقد شقّت صمت المكان:

---

[5] - الغيبوبة

- لا تعتقد يا بن داود أنه بوسعك أن تجرّني إلى أحاديثك..ودعابات الزمن الجميل

- عندك الحق يا صديقي راح ذاك الزمان وراحت أيامه.

من جديد اقترب بن داود من تركي، بعد أن خلا لهما الجو بمغادرة الشاب الصامت، الذي بدا للرجلين كظل غائب عنهما، كما كان غائبا في -رحم القدر- خلال زمنهما الجميل..

- هل مازلت تحنّ إليها؟

- من هي.. فهن كثيرات..

صوت ضحكاتهما الجهوري بلغ مسمع الزائرين، والمارين من حول غرف المرضى، وكأنهما بعد هذا العمر يتصوران أن ليالي الأمس لا تزال تحيا بأنس اليوم. وأي أنس؟

مال بن داود على تركي، وكأنهما في سنوات الخمسينيات وهو يقول:

- يا سي تركي؟ راني اشتقت للكثير من الأصدقاء، تحديدا إلى أحدٍ من أبناء جيلنا.. غير أنهم رحلوا لا محالة.

غلبه الصمت، وما منعه من القول:

- لم يبق على ما يبدو يا صديقي غير دمع من الذكريات.. والوحدة القاتلة.

- إذا كنت أنت من يقول هذا، يا سي بن داود، وأنت المحاط بالأبناء وبعض الأحفاد، فكيف بهرمٍ وحيد مثلي؟

- أدري أنك لست وحيدا.. أبدا لست كذلك يا سي تركي. فلا أحد سواي يدرك تلك اللحظات، وأنسها مع تلك المخلوقة التي عرفتها..

- تلك أيام ومضت يا صديقي...

لم يكن بمقدور تركي إخفاء جروحه وعظيم القروح كلما استحضرت ذاكرته "عربية"، أو ما يذكره بها.

حانت لحظة انتهاء الزيارة، ومعها توقفت لحظات استعادة الذكريات. ساعتان كانتا كفيلتين بإيقاظ ما مضى في أعماق تركي. أما بن داود فقد غادر المكان مُتّكئا على عصاه التي دخل بها عبر باب الغرفة إلى صديق

الطفولة والشباب. رغم هذا العمر لم يكن يحتاج إلى سيارة أجرة من مثل تلك السيارات- وما أكثرها- الصفراء اللون، المنتشرة في مثل هذا الساعة خارج المستشفى لتقلّه إلى حيّه، حي المحطة القديم وسط حاسي بحبح.

كان بن داود من جيل يُعرف بصحته وصبره، جيل قاوم الأوبئة وويلات الاستعمار. جيل تركي وبن داود يعيش ما لم يكن بمقدور الآباء والأبناء التمتع بالنزر اليسير منه. لم يكن لشباب حاسي بحبح تلك المقدرة على الصبر والجلد، وهم يتابعون -صباح مساء- رياضة **المشي** العاشقة لأقدام بن داود وأترابه والتي تكاد يومية. شباب المدن على كثرتهم لا يعرفون لرياضة المشي سبيلا، وإذ بأقدام الكثير منهم لا تقوى على حمل تلك الأجساد الخاوية لمئات الأمتار، كتلك المسافة الرابطة بين المستشفى ووسط المدينة.

مشى بن داود وسط تدفق الذكريات وحيدا خارج المستشفى، **واستحضر** بأسى تلك الصورة التي تأبى النسيان، والتي لخّصت ما جرى لـ عربية حبيبة تركي، الرابض في غرفة لم يكن بمقدوره تمييز نوافذها وهو يسير خارجا. مسير بن داود كاد يتوقف حينما طفت إلى كيانه مرارة هذه الذكرى، وهو يحدّث نفسه:

- أنا السبب فيما جرى لها وما هو عليه الآن..

كانت نهاية عربية المؤلمة، تشبه عند بن داود الألم الذي يصاحب صاحبه.

لم يطل مسير بن داود حتى أوقفه صوت بدا له مع شيء من التّعب أنه من جيرانه، يستقل سيارته الخاصة:

- يا سي بن داود (يا الله)[6] نوصلك!

رفض الهرم في البدء مرافقة جاره، ولكن إلحاح الشاب عليه دفعه -على مضض- إلى الركوب بجانبه، بعد أن أعطى الإشارة إلى عصاه أن تبعث بالسلام إلى الشاب.

بدأت زخات من المطر تتهاوى ببطء وهي المشتاقة إلى أرض حاسي بحبح، وعلى نغمها الهادئ مضت سيارة الشاب الـ "بيجو" 207،

[6] - لفظة في الدارجة المحلية تعنيفي سياقها: (هيّا)

وهي تستضيف على مقعدها الأمامي بن داود. مع المنعرج الأول الذي يلزم المطية على الانحراف بشيء من الأريحية نحو اليسار وهي إلى الجنوب من المستشفى، انطلقت من الشيخ تنهيدة اختصرت الكثير والكثير مما تختزنه أعماقه. يدرك الشاب دلالتها، فقد اعتاد مع بعض رفقائه استفزاز الشيوخ عبر أسئلة تبحث في العادة عن حفريات الزمن الجميل، وكأنهم استعاروا ذلك الحنين من الجيل الأول:

- ماذا تحكي لي يا سي بن داود؟
- واش نحكيلك يا وليدي؟
- هل صحيح أن زمنكم أسعد من زمننا؟

لاح شيء من الصمت، قبل أن يبدأ الشيخ السؤال الذي يحب الشباب – ممن عرفهم- سماعه:

- أتريد الصدق حقا؟...
- ولا شيء غير الصدق.
- كنا برغم الفقر والجوع محبين للحياة، مقبلين عليها. كنا في غاية الطمأنينة. وسط خيامنا تقاسمنا العمر مع الآباء الأعمام وحتى الأجداد وتقاسمنا معهم كسرة الخبز.
- وماذا فعل بكم الاستعمار؟ ألم تكونوا عبيدا له؟
- حنا عبيد؟
- أقصد أنكم لم تنعموا بالحرية وأنت بين قيد الجوع وفرنسا
- ما كناش عبيد، أنتم اليوم المستعبدون..

أراد الشاب أن يخفف من وطأة السؤال، وقد استشعر تبرم الشيخ قائلا:

- يا سي بن داود...جيلكم من أخرج فرنسا وما نحن الآن إلا من ثمرة تلك الدماء. ولكننا رغم ذلك عانينا شيئا مما عانيتموه؟
- أي معاناة يا وليدي؟
- يا سي بن داود عشت معنا العشرية الحمراء في التسعينيات، وعايشت مرارتها، وضحاياها الآلاف.. أترى أن الأمر كله مفبرك أو أن حزب فرنسا وراء الأمر..

صمت الهرم من جديد، وهو يتابع قيادة الشاب عبر سيارته الفرنسية، قبل أن يختم نقاش الجيلين:

- خلّيك من "البوليتيك"، ويا "الله" إلى دشرتنا.

كان الحي ولا يزال في قلب حاسي بحبح، حي تربطه بالطريق الكبير المسمى الطريق الوطني رقم واحد، طريق فرعي معبّد هو الآخر بالإسفلت المتواضع من جهة الغرب، وهو مناظر لمضرب السوق، السوق العتيق.

كان جار سي بن داود يسوق بروية وهدوء على غير عادة من هم في سنه وكأنه يطوف متجولا بالشيخ، الذي بدا أنه مستمتع.

نظر الشاب مطولا إلى مجموعة من النساء وقد بدت وجوههن مطلية بكثير من الزينة:

- لم نكن نرى لهؤلاء مكانا خارج الخيام..
- نعم يا سي بن داود..
- لم نكن نرى النساء بالأصل خارجا..
- حكى لي جدّي أنه بالكاد كان يرى طيف امرأة..

تنهد بن داود، محاولا عبر الشاب مخاطبة زمن غير زمنه:

- كانت النساء برغم جمالهن يحتشمن
- ولكنهن كن في قيد وفي سجن؟
- أي قيد وأي سجن... كنت أراهن في سالف الزمن خارج الخيام وهن يعملن، ويجتهدن ولا يخدش صورتهن أحد من المارين من بعيد
- ولكن لم يكن بوسعك رؤية من تهفو إليها نفسك..
- ولماذا تراني؟ كانت الخيام مملكتها. إذ ترى الواحدة منهن وهي في سن الزواج، تتحاشى العيون لا خوفا، بل وفاء لمن حواها بألفته وصحبته ذلك الذي كفلها منذ الصغر.
- يا سي بن داود أحدّثك عن شيء آخر!

لم يكن الهرم يجهل مراد الشاب، ولكنه سايره بسؤال تقليدي:

- عن ماذا إذن؟

- عـن الحـب أيهـا العجـوز (وكانـت نـبرات الشـاب المتصـابية وحركاتـه الضاحكة تبعث بكثير من الألفـة إلى بـن داود)، عـن العشـق..عـن عيـون المها. ولا أحدّثك عن رتابة تلك الحياة..
- الحب؟ ما به الحب؟
- ألم تعرف امـرأة في حياتـك؟ ألم تحبهـا إلى درجـة الجنـون...وأنـت بـين الخيام
- كنّا نعيش الحب، وكنا نبصر إلى من نحب...ولكن من وراء حجاب..
- حجاب!

كانت تلـك إجابـة الشـاب، وقـد غابـت نـبرة التصـابي والمـزاح عـن الحديث، وهو يـدير عجـلات سـيارته عـابرا وسـط حـاسي بحـبح، المكـتظ بالسيارات. لم يبذل جهدا في التحكم بالمقود السـلس، ولكـن علـت شـفتيه همهمات ترجمت النرفزة التي تصّعّد كلما دخل أحدهم إلى هـذه الـدائرة وسط المدينة. لم يكـن بـن داود وعينـاه الهرمتـان تتابعـان الضوضـاء مـن حوله، ولم يعـش اللحظـات، بـل كـان يستحضر ضوضـاء أخـرى في نـواة ذاكرته، لحظات من العبث الطويـل في ليلـة واحـدة، ليلـة غريبـة عجيبـة نسج لهيب أنسها معه قهوجي السوق بن فراج.

لا ينسى بن داود كلما رتب رفوف ذاكـرة بـأن يستحضر صـديقه تركي، ولم يعرف لم؟ كانت فورة الشاب تملأ سماء السيارة سبابا، أمـا هـدوء بن داود فقد بعث به إلى سنين خلت، وصورة "عربية" تهيمن على الأجواء وعلى حاضر حاسي بحبح، كـما كانـت في ماضـيه. بـدا أنهـا أيقونـة للخيـام وللسوق، ولا صورة أخرى تضاهيها جمالا وسحرا.

"عربية" أيقونة المدينة، كانت كهذا الوطن المسلوب، قربان الشـك واليقين، ضحية حلم الحرية والتجوال عبر سماءاتها.

كانت نهاية كل ذلك الحب صادمة لتركي ولصديقه. التزم بن داود أن يبوح بسّره، بسّر ما فعله –دون أن يدري- إلى صديق العمر..ولـيكن مـا يكون.

سرّ عربية

نعم سرى طيف من أهوى فأرّقني
والحب يعترض اللذات بالألم
الإمام البوصيري

كعادة كل سوق، كانت تخرج من مدخنة الخيمة-المقهى البدوية المنصوبة بإتقان فوق قماشه المتين الممزوج بالجلد المصنّع و"الباش" رائحة البن المحمص. وكأن بالقهوجي بن فراج مهندسا يزاوج بحرفية بين قماش الخيمة والمدخنة الزنكية، مغريا بذلك مع كل خميس زبائنه ومنهم بن داود للولوج إلى دفء الخيمة وقهوتها. ما تزال رائحة البن تغري المتسوقين كما أغرت فيما مضى فاطمة والدة تركي، مع صباح كل يوم أحد موعد تحميص قهوة الجند الفرنسيين. هؤلاء الذين يبعثون بأصواتهم المخمورة العالية لتخدش من حين إلى حين بعض الليالي، وهم الرابضون منذ أوائل القرن بثكنة حاسي بحبح الضامرة.

كان ذاك سوقا استثنائيا، في زمن استثنائي. زمن الجوع والبرد القارص والحر اللاهب وزمن الفاقة. تلك كانت فترة الشر، الممتدة من 1938 إلى 1945. فترة كان الجند أمثال سالم البدوي ورابح التّلي وعلي الأغواطي وقودا لها.

تلك لا ريب، بداية النهاية لفترة دامت سبع سنين عجاف، حرب الحلفاء ودول المحور. إخماد النّار الموقدة، التي أشعلها هتلر، وبعث بلهيبها إلى أوربا وإلى العالم، كما بعث بطائراته وهي تحلق لأول مرة أسرابا من حديد وفولاذ فوق الشمال الإفريقي:

- على غير عادتها منذ الصباح وهي تحلّق..
- تبدو ألمانية بحسب ألوانها..
- بل فرنسية. ألا تتابع الأخبار؟
- كيف بوسعي أن أتابع الأخبار.. رغيف الخبز وبالكاد نقتنيه

- لقد سمعت من راديو المحطة أنه لم تعد لـ هتلر قوة يجابه بها الحلفاء..

- ما زال "كلير"[7] قويا، وهو يسيطر على نصف أوربا..

كان بن داود يرتشف مع كل جواب من سجال الحاضرين القادمين من أرض التل، شيئا من "الحار" الذي ينقصه السكر، ومعه أشعل سيجارة تقليدية تعوّد هو وأمثاله معالجتها. غير أنه لم يطق صبرا على البقاء صامتا:

- ليت الحرب تنتهي..

- وما يعنينا إن انتهت أو استمرت. فأوربا وقودها

- لم تكن أوربا وحدها وقود تلك الحرب...لم يصبنا الجوع إلا منها.

توجه إلى الشاب المندفع بالحديث، ونفث سحابة من الدّخان تناثرت في الهواء كما يتناثر التبغ على "قندورته"[8]، كلما أحرق سيجارته السمراء:

- الحرب يا أخوي موحشة ولا يعقبها إلا الفناء..

وحده –بن داود- من بين الحاضرين من يستذكر أخاه جلول، الذي كان آخر عناق بينهما هو ساعة مغادرته الديار على صوت أحد الجنود "إلى السويس"، ولم يعرف عنه بعدها شيئا، غير رسالة أتته "مخيطة" بأحرف لاتينية عبر بريد حاسي بحبح، تحمل العنوان التالي:

Djelloul Ben Kouider

Eglise Sainte-Marie

Route de la steppe (*I*)

Ville de Hassi Bahbah. Djelfa, Algérie

[**جلول بن قويدر**،

كنيسة القديسة ماري،

طريق السهوب رقم واحد

مدينة حاسي بحبح، الجزائر]

---

[7] - يقصد هتلر. كان أهل البادية يسمونه"كلير"

[8] - قميصه

لم يكن بن داود يعرف القراءة والكتابة مثل رفيق دربه تـركي، مـما يوقظ شعوره بالغيرة من هذه المكرمة الإلهية. ويزداد شعور الغـيرة اتقـادا أن صديقه يستطيع أن يبادل "عربيـة" عبـارات الشـوق، ولهفـة العاشـقين ضمن كل رسالة يكتبها أو يتلقاها بين سوق الخميس وآخر.

دعته تلك الغيرة ذات سهرة أنس، أن يبوح بسرّه المدفون وعلى غـير وعي منه إلى بن فراج.

كان القهوجي متمرسا لا في تتبع السمع والبصر بـل في اقتفـاء أثـر القلوب. وبدأت الحبكة حينما سأله:

- ما الأخبار؟
- عن ماذا بالضبط يا بن فراج؟
- عن أخيك؟ أقصد عن الرسالة التي ترجمها لك تركي؟
- كيف سمعت بها بهذه السرعة؟
- ههه... أنا أول من تسلّم الرسالة، طبعا بعد السورا Geneviève [9].
- ألا تخفى عليك خافية..؟
- هي الخيمة..وما تحمل من أخبار هنا وهناك، يا بـن داود.. هيـا بشّـر بالخير..
- لا تحمل الرسالة جديدا..
- قد يخفي عليك تركي ما تكره؟
- بل قرأها حرفا حرفا، واستشف منها أنهـا ليسـت لأخـي، بـل يبـدو أن المظروف والمحتوى مختلفين. هذا ما أخبرني به تركي؟
- وماذا عنه؟ كيف هو؟
- من؟
- ومن غيره؟ تركي، صديقك؟

استفهام بدا لبن داود أكثر غموضا من رسالة أخيـه التـي أخطـأ محتواهـا عنوانها.

---

[9] - تعني La Sœur وهي الأخت راعية الكنيسة.

- منذ أمر الرسالة، لم أره..

- التقيت به الأسبوع قبل الماضي، وبعد أن ارتشف فنجانه المعتاد خرج مسرعا..

- هو هكذا دائما، كلما دخل السوق كانت لهفته لمغادرته أكبر..

بعد أن أرسل بن فراج نظرة فيها شيء من الريبة، دنا من بن داود وبهمس لم يعتده قال:

- خذ هذه!

بصمت شديد، واستفهام أشد، أخذ المظروف – الذي لم يكن يشبه ذلك القادم من وراء البحار- وقد اشتم منه عطر تركي، الذي يستحضر معه "عربية" كلما علق برئتيه عبقه. زادت حيرة بن داود والمظروف يسبح في راحتيه المتعبتين عن بن فراج، وكيف دخل ضمن دائرة السؤال، مما دعاه إلى سؤاله:

- ما هذا؟

- كما ترى يا بن داود، هي رسالة. وقد سقطت من جيب صديقك سهوا ذلك السوق.

- ولم لا تنتظره؟

- انتظرته هذا السوق، ولم أره. ربما تكون مهمة بالنسبة له...

وقبل أن يجيب بن داود، أنهت جملة بن فراج استفهام صديق تركي:

- أنت أقرب صديق إليه.. ولا أعتقد أنه يخفي عنك كثير أسراره؟

مع استفهام بن فراج، بدا أنه ينقب عن أمر يخص تركي.

خبأ بن داود المظروف، المزدان برائحة العاشقين، وراح يطلب فنجانا آخرا من مشروب السوق الأشهر، والناس من حول الخيمة المقهى لا تحمل منه إلا النزر اليسير:

- اسمح لي هذا المرة يا بن داود خويا، "الحار" قليل اليوم، وكما تعلم فالسكر منذ مدة شحيح في الأسواق..ولولا الزبائن المعتادين من هنا وهناك لكنت أغلقت المقهى..

وراح بن فراج يبعث بالشكوى. ويرسل، تارة إلى بن داود وإلى الجمع من حوله تارة أخرى، أغلظ الأيمان أنه مفلس وأن وضعه المادي في الحضيض. كان من اليسير على بن داود أن يفهم أن الرّجل يريد ديْنه فوجد نفسه مضطرا إلى الصمت. ومع ازدياد ضجر مقهى السوق، بحث عن مخرجٍ لمأزق هذا الخميس. وكيف به ينهي هذا الإحراج.

همّ بالقيام، محاولا الهروب من الموقف كله، وقد احتوته حصائر المقهى على مضض، بعدما كانت فراشا متواضعا للمتسوقين من مختلف الأعمار والجهات، ولكن يد بن فراج المفتولة أخذته برفق على حدة:

- أين أنت ذاهب يا بن عمي؟
- لم يبق لي يا سي بن فراج غير مغادرة المكان. ففنجان حار أضحى أغلى من ابن عمّك!
- اجلس.. ودعك من هذا الكلام. لا تكبّر الأمر
- لم أنس أنني مدين لك، ولكنك أعلم بالحال..
- يا سيدي لا تقلق..واجلس قلت لك.

أنهى بن فراج السجال عبر اعتذار، توّجه فنجان "حار" حمله بن داود دون أن يحتسي منه رشفة، معه عبارات مغلّفة بصلة القرابة البعيدة التي تجمعهما من عهد الأجداد. ما هي إلا ثوان حتى انتقل الحديث من الكرامة وعزة النفس إلى عوالم السوق وأخباره. إلى البيع والشراء والكنيسة والمحطة الجديدة، واختتما عمر الدقائق بتركي.

شرّق الحديث بالرجلين وغرّب على وقع كثرة الوالجين للخيمة. مما دعا بن فراج لاستضافة بن داود على طريقته:

- لنترك الخيمة، ودعنا نغير الجو خارجا..

الحديث من "الحار" والقهوة إلى أعباء الحياة. كانت شمس الضحى أقرب إليهما، من ذلك الجندي الرابض بعيونه الزرقاء بالقرب من السوق، يرقب المارين، ومرسلا إلى البدويين رسائل لا تحمل الكثير من الشفرات.

ما إن خطا العربيان بضع خطوات حتى أشار الجندي الفرنسي إلى أحدهما بالاقتراب. لم يتأخر بن فراج في إجابة النداء بسرعة فائقة، جعلت الاستفهام يزداد تعاظما في أعماق بن داود عن سر هذا التجاوب السريع.
لم يطل وقوف بن فراج مع الفرنسي طويلا، حتى التفت إلى صديقه:

- أرواح يا بن داود

تردد بن داود قليلا قبل أن يفكّ سريعا إشارات بن فراج، عبر عيونه الكبيرة، تدعوه للإسراع.

- تقدّم يا بن داود، هذا بيار
- Approche بين داوود!

بدا الفرنسي يعرف شيئا من العربية، أراحت بن داود وأذابت شيئا من جليد اللسان:

- يريد بيار سيجارة، وتعرف أنني لا أدخن. أعط له واحدة أنا أخوك...
- ما عنديش.

ما إن سمع بيار كلمة "ما عندي شي"، حتى ثارت ثائرته، وأخذ بتلابيب بن داود وسريعا أخرج من جيبه التبغ، وكأنه كان يعلم بإخفاء الرجل زادا لضائقته.

- واش هذا؟ C'est quoi ça donc

لم يرد بن داود على السؤال، خشية أن تتفاقم الأمور. غير أن الجندي لم يدع له ولا لبن فراج فرصة الكلام، ليأخذهما إلى الثكنة الصغيرة، غير بعيد ومن حولهما الجمع يتساءل ما الأمر.
لم يتح لبن فراج أن يناقش ابن عمه، أو يلومه على رعونته. غير أنه حاول عبثا أن يستعطف بيار:

- ميسيو بيار، صاحبي لا يعرف شيئا، وهو كما ترى مريض..إنه مختل (ليشير بيده إلى رأسه)
- Vous êtes tous des fous
- أقسم لك أنه مختل .. fou بالفعل..
- Silence

ختمت كلمة صه كل حديث، وما هي إلا أمتار، حتى وجد العربيان نفسيهما أمام القائد وجها لوجه.

بعد انتظارٍ لهنيهة، دخلا وهما يسمعان سؤال القائد لجنديه:

- Quoi
- Ils dirigèrent vers la forêt

اقترب القائد الفرنسي من الوجهين، وإذ به يمسك بن داود قائلا له:

- شكون أنت؟
- بن داود
- Je ne t'ai pas vu auparavant

وعبر رسالة من عينه أنطق بها بيار ليترجم للبدوي:

- راه يكولك Le chef ما شفتكش من كبل
- كنت نصرح بالغنم مع جدّي

قبل أن يواصل الفرنسي استنطاق العربي، دخل القايد، وهو يحمل بندقية- قد أمالها عن يساره- مشابهة لتلك التي أثقلت كاهل بيار.

نظر القايد إلى بني جلدته، وهو يسمع سؤال قائد المنطقة:

- Vous les connaissez Caïd؟
- Oui monsieur
- تعرفهم مليه
- إيه، هذا بن فراج القهوجي وخدام عندي، وها ذاك ..

أسرع بن فراج بالقول:

- هذا بن داود بن عمي و..

ليفاجئه القايد:

- أسكت يا بهيم...ما نعرفوش أنا؟

ليضيف القايد لسيده الفرنسي، منهيا الموضوع بأكمله:

- نعرفهم مليح يا سيدي...

طرد القائد الفرنسي- الجميع، مستثنيا القايد الذي تركه بجواره لبعض الوقت. لم يسبق لـــبن داود أن تحدّث مع فرنسي، ولم يسبق أن رأى القايد إلا في بعض المواسم، وقبل أن يغادر فضاء هذا المشهد الذي لم يعتده، قال لصديقه معاتبا:

- علاش خرجتنا من خيمتنا يا بن فراج علاش؟ واش علاقتك بـ القاوري[10]؟

تلعثم الرجل. وأشار إلى صديقه بوجوب الانتظار فحسب.

لم يطل بقاء القايد، حتى دعا بإشارة مشابهة لتلك التي بعث بها بيار إلى بن فراج. تقدّم بن داود هو الآخر إلى كبير القوم، يسمع توبيخ الرجل لهما:

- واش هذا اللعب نتاع الذراري
- يا سيدي ما كان حتّى شي!.."بيار" طلب الدّخان من بن داود..و..
- أسكت يا طنح[11]. روح أنت لداركم (في إشارة إلى بن داود)...وابق أنت معايا.

انتهى المشهد كله، بنوع من العبث بين فراج وكذا بين داود، الذي استصغر شأنه، وهو يسائل نفسه:

- القايد يسب والرومي يسب...ونحن بينهما كالبهايم...

وراح عائدا إلى الدار لا يدري بما يحدث أو عن ماذا يحدّث.

مضت الساعات ودقائقها سريعا، ولولا الحدث وحوارات بن فراج مع الجند الفرنسيين وتدخل القايد، صاحب الحول والطول وسجالاته مع أولياء نعمته، لكان كالقليل من ساكني بحبح يتقلّب ضجرا مع الوحدة الطاغية لهذه الأرض العربية. لم يشغله أمر بن فراج ولا علاقته بالفرنسيين ولا سر مناداة بيار له، بقدر ما تساءل عن مقدار الصبر الذي يحوزه هؤلاء الفرنسيون للبقاء في هذه القفار، وهذه الوحدة القاتلة، ومع ذرات الغبار المتأتية من حين إلى حين عبر الرياح الغربية، الحبلى بالرمال المجاورة

[10] - الفرنسي

[11] - مغفل: وهي سبّة تحيل إلى العناد

لحاسي بحبح، وجلدهم على نسيان أرضهم فرنسا. وكيف لـ بيار وبيران ولغيرهم أن ينسوا باريس، ولو إلى حين...

رحل بن داود وهو متكئ إلى فضاءات هذا المساء، وقد تناسى إلى حين وضعه المزري، وديونه العالقة عند بعض تجار السوق والبلدة. ولولا مساعدات تركي، الذي يمسي معه ويصبح، لكان غير قادر على النظر فيما تبقى من كرامته إلى عيون أولئك، ومنهم بن فراج لا ريب.

مع لحظة الصفاء، والبحث عن الذات، سمع أحدهم ينادي عليه من بعيد. مع تكرار المناداة، عرف بن داود أن بن فراج هو من ينادي.

قدوم غريب في وقت غريب، لرجل بالنسبة إلى خيمة والد بن داود أكثر من غريب.

خرج وهو يجرّ تضمرا وضجرا، مع استقبال المنادي، نظر إلى ورائه وإذ بوالده ووالدته يتبعانهما بنظرات فيها كثير من السؤال. والدا بن داود أضمرهما الفقر، وأبعدهما الكفاف عن كثير السؤال.

- خيرا إن شاء الله يا بن فراج، ما الأمر؟
- خيرا إن شاء الله

وضع بن فراج يده على كتف بن داود، كي يزيد في أريحية الحديث ويبعد شبح القلق الذي يساور أبناء البادية كلما حلّ بقرب ديارهم زائر وإن كان ذا قربى.

- ألا يشغلك أمر العمل
- بالتأكيد..وهل تشك في حاجتي إليه
- إذن حضّر نفسك يا صديقي..يبدو أن عملا ينتظرك..وبأجرة جيدة.

لم يعهد بن داود من قهوجي السوق، دعابات في أمور جادة كهذه كما أنه يعرف علاقاته بأصناف الناس، وتوغله بينهم. وبدا السرور على محياه، مما دعاه أن يستجيب لطلب بن فراج للذهاب معه.

عاد بن داود مخبرا والديه في حاجته، ومحاولا أن يمحو عنهم الإبهام:

- راني نتوخر باش نرجع[12]، يا بُّويْ.

[12] - سأتأخر يا أبتي في الرجوع

- وعلاه؟
- ربما ربّي يفرجّها..

لم يطل السؤال، واستعاض في أعماق والديه بالقلق الدائم، قلق يساور أهل الخيام كلما اقترب أحدهم من الفرنسيين أو بمن يقرّب منهم.

غادر الرجلان المضارب، وكأن بالشمس تودّعهم وتودّع قمم الخيام التي تزينت للمغادرين بآخر سطرٍ من أشعة الشمس الذهبية.

كلما دنا الرجلان من مركز البلدة، إلا وزاد استفهام بن داود عن طبيعة هذا العمل، وما يلبث أن يزول عنه السؤال كلما استحضر- وضعه المزري.

سلخ الليل من النهار كل ما تبقى منه، وأطبقت الظلمة برهبتها على الأجواء، بعثت الخطى بالبدويين إلى عتبة بيت صغير، يتكئ على الحوش الكبير للثكنة الفرنسية الصغيرة. ولج الرجلان بهدوء إلى الدّار عبر باب خشبي ثقيل يختزن عبر شقوقه العمودية كل الذكريات المبهمة.

لم يكن بمقدور بن داود أن يسأل عن شيء وبن فراج يقوده كأنه طفل صغير يدخل عالما مجهولا.

- تفضل يا بن داود... ولا تستغرب
- يا سيدي أنا لا أستغرب، أحب فقط أن أعرف هل بيت الجند بيتك؟
- ليس بيتا للجند، إنه غرفة خاصة بي، منحها لي القايد لأكون قريبا من السوق..
- من أجل يوم واحد في الأسبوع يمنحك هذه الغرفة؟

علت الشفتين الشابتين لبن فراج ابتسامة، لم تُخف كسر إحدى أسنانه الرباعية:

- ولي فيها أشياء أخرى يا بن داود
- أشياء أخرى؟

وكأن بن داود اشتاق إلى التفاصيل:

- ما هي؟
- قبل أن أخبرك بشيء، عليك أن تعرف أمرين..

- ما هما؟
- أنت أول من يدخل هنا..
- والثاني
- لا يعرف القايد عن الأمر شيئا. ولولا أنه في عمل في الجلفة لما كنت تجرأت على استقدامك هنا..
- ولكنك أخبرتني عن عمل لي..
- لا تتعجل. أولا سنأخذ عشاء مميزا ثم نواصل ليلتنا..

كانت لفظة "ليلتنا" مغربية لبن داود، أكثر من "العشاء" الذي يتوق إلى تذوق أطايبه كغيره من أبناء الخيام التي تطل في صمت على تخوم بحبح. لا يُخفي أحد من أبناء البلدة العربية ولعه بوجبة تنسيه جوع الأيام الموجعة، وإن كانوا تعوّدوا الصوم والضمور..

أزاح بن فراج عن الطعام منديلا عريضا، يحفظ هو الآخر رائحة الكسكس الزكية.

- من عند من كل هذا الخير يا بن فراج؟
- من القايد طبعا..
- من القايد؟ ما المناسبة؟
- وما المناسبة في رأيك؟
- ليست على شرفي بالتأكيد..

ومع قهقهة لطيفة أضاف بن فراج:

- ولا على شرفي...

ليضيف:

- هي من امرأته..وهي على ما يبدو استضافة للقادم الجديد
- جندي فرنسي آخر..
- إنه فرنسي فحسب..
- كيف لا أفهم؟

- يقولون إنه "الطالب"[13] الجديد.

أخذ بن فراج بكفه الجائعة أقل من صاعٍ من **الكسكسي**، المغطّى بسمن تفوح منه أعشاب برية أمسى كثيرا منها كأجنحة القطا، منقرضا عن حاسي بحبح وتخومها.

- كل يا بن داود ودعك من أمر "القاوري"!
- صدقت..

أخذ الأكل منهما وقتا طويلا، كي يمحو عنهما ساعات طوال من جوعٍ ما زال رغم ذلك يسري في دماء البدويين.

أعاد بن فراج الصحن سيرته الأولى، وغطاه بالمنديل ذاته، وقد اختلط به شيء من تراب الدار.

- ينقصنا الآن شراب بارد يذهب عنّا لهيب الجوع
- يبدو أن الشبعة أذهبت عقلك يا بن فراج ؟

مع ضحكة مسموعة أخرى أضاف بن فراج:

- سترى كيف يذهب عقلك الآن؟

مدّ بن فراج يده إلى "القنينة' المغلّفة بشيء من بقايا القطران والعسل واحتسى منها ما بدا لبن داود ماء زلالا.

- مذاقٌ غريب يا بن فراج...ولكنه بارد يغري على الارتواء.

قام الرجلان بعيد لحظات الدّسم المغدقة على الأجساد المتلهفة إلى الطاقة، وبن فراج على رأس الخطى الشابة. بعد أن ترك الصحن فارغا على عتبة الباب العتيق، وقنينة الشراب على مرجلٍ مهمل، اتجها نحو مدخل الدار بعد أن شرّعا دفتي الباب الفاصل بين غرفتهما وغرفة أخرى بدت أصغر بالكاد متران على مترين، ومع كل خطوة لتقدمهما وكأن عالما انفتح أمامهما.

---

[13] - الطالب يعني عند أهل هذه المنطقة "المعلّم"

ولج الشابان إلى عالم غريب عجيب، وقد لعبت بن داود قنينة الحياة، كي تعينه فيما بعد على فضح كل أسراره المكتومة. وقف بن داود أمامه مبهورا، وإذ بن فراج يشير إليه بالصمت التام، كلما تقدّمت الخطوات إلى الغرفة المليئة بالنساء من أشكال عديدة، وكأنهن جُمعن من كل أصقاع العالم. فيهن السمراء والبيضاء والمولدة، ولكنهن يشتركن وسط هذا الجو المزهو بهالة من الدّخان الكثيف في تغطية وجوههن.

نسوةٌ تتوجهن أعمار الشباب، يدرن كالغلمان في خدمة ثلاثة رجال فرنسيين، بدا أحدهم لبن داود وجها مألوفا رغم الظلمة المهيمنة على المكان. لم يكن يعتقد للحظة، أن مكانا كهذا منصوبٌ في هذا الشطر من باديته الشاسعة.

- أليس هذا صاحبك القاوري (وهو يقصد القائد)

أجاب بن فراج صديقه بهمس آخر:

- بلى. ولكن عليك بالصمت.

زادت كثافة الدّخان وهالته في هذا المكان الغريب، المربع الواسع. المحتفي بألوان زرقاء وبيضاء على جدرانه، ليست تُرى بعيون العربيين. وراح بن داود رغم تعوّده على أنواع الغليون يتابع المشهد، وصديقه يزداد ابتعادا عنه ومن العابثين اقترابا. وجد بن فراج هو الآخر مكانا له على سجاد مربع يهيمن على أرضية المكان المتّسعة والتي تبدو من أسفلها حصائر تغازل السجاجيد، كما تغازل السمراء الممدودة من بعيد ذلك الجندي القابع بلباسه الرسمي على زاوية المكان اليسرى. لم يكن بإمكان بن داود أن يعدّ النسوة المحيطات بالمجلس، ولم يكن يدور في خلده المتخم بالشراب إلا سؤال واحد: من أين أتين؟ ومن أتى بهن؟ وكيف لهذه الأصوات المملوءة بالتصابي، ولم يدر بن داود أهو في حلم أم في "علم". لم يتح له مشاركة بن فراج الحديث، ولا هو قادر على اقتحام هذا العالم. ولم يعد يدري أكل هذه الأجواء مرتبة من قبل أم أنها دهاليز مدينته التي لا يعرف ما تخبئ له ولأهلها..

وسط استفهاماته التي زادت تشعباتها مع غيوم الدّخان، الغريب في نسيجه عن سجائره السمراء، التي من أجلها ولج بن داود عالم بن فراج باحثا عن لقمة العيش المغمسة بالجوع والقهر والذل. أخذت بيده فجأة فتاة بيضاء البشرة براحةٍ أكثر بياضا، وقد دفأت يديه المائلتين إلى السمرة البدوية. لم يتمكن الشاب من فعل شيء وإذ بدوار يأخذه إلى غير هذه العوالم التي لم يميز شيئا فيها غير كلمات بن فراج وهي تقول:

- هيا تمتّع يا صديقي، فاليوم خمر وغدا أمر..

وراح بن داود كالآخرين في ذروة النشوة، بين خمر وجمر، بين شراب ممتع وجسد ملتهب، وباحت في دواخله كوامن الفقر والحرمان بلسان الخطيئة الأولى، وما زال والجالسون على الحال، ولا لغة تترجم الفضاء غير الجسد والأنفاس. لا لغة هنا تتعرف بها الأجساد إلا الصمت حينا و البكاء أحايين أخرى. وانطلق اللسان بكل ما كان مكتوما، ولم يع إلا وقصة العاشقين تركي وعربية تعرف طريقها إلى الآذان المصغية. ويبدو أن آذان بن فراج تلتقط النوتات، كما يلتقطها الموسيقار الحصيف من شفاه الموهوبين.

*

بعثت الشمس العربية، أولى خيوطها الحيّة من جديد على أرض حاسي بحبح، وإذ بأصوات الديوك تترك مكانها إلى عديد الأطيار، كي تعلن عن ميلاد اليوم الجديد. استيقظ بن داود لأول مرة على غير صوت ديكه الصباحي. دنا من رفيقه بن فراج ودون تحية الصباح:

- أين نحن؟ وماذا جرى يا بن فراج؟

بالكاد فرك عينيه، ولوازم مقهاه تناديه هناك في آخر الغرفة، التي بدت هادئة كهدوء الصباح.

- لم يجر شيء.. لقد دبرت لك عملا، ومن اليوم مساء، وكل مساء ستتكفل بتنظيف كنيسة Geneviève مقابل ألف فرنك.

لم يناقش بن داود أمر العمل ولا الشهرية، ولكنه أعاد السؤال:

- ماذا جرى بالأمس يا بن فراج؟

- لا عليك إنك جديد في عالم الشرب..

- الشرب..

وإذ بثورة تستيقظ في أعماق بن داود، لم يكن عليها ليلته السابقة:

- الله يلعنك يا بن فراج...بعد الدَّين ورطتني في الشرب...

لم يكتمل نقاش البدويين، وقد أنهاه بن داود بخروجه نحو الخيمة، التي نشأ فيها كما نشأ صديقه تركي.

*

أصر تركي رغم مرضه على الذهاب إليها. حمل في يده مظروفه وانطلق إلى موعدهما، محمّلا بالأشواق الممزوجة بعطر يظنه مقدّسا أهدي إليه منذ سنين من أرض الحجاز. كأن بركة ذلك العطر وقد تبقى منه قطرة أو اثنتين سلاح يبعد عنه وبه عيون حاسديه، وإن لم يرهم.

دنا من السوق بخطى ثقيلة، زادتها الحمى ثقلا، وإذ بالضباب يغطي فجأة المكان. ضبابٌ منع عن الكثيرين من رواد السوق رؤية ما بداخله من البشر وسلعهم، أما تركي فإنه لا يزال يرى بعيني قلبه خطى "عربية" المنسلة إلى المكان كالعادة بلبوس الكواعب والعجائز. مع تزايد كثافة الضباب تعاظمت نيران الأشواق، وانتقلت إلى خيالاته صور من مشاهد اللقاء الموعود، فراح يتخيل نفسه -وكأنه يستشعر تفاصيل الوله والعشق- داخل قاعة للمسرح اللاتيني أشبه بتلك التي غرزها في ذاكرته مدرّسه الفرنسي وهو يردد أمامه :

- تورغكي[14]... تذكّرني بـ Tartuffe[15] .

- وي ميسيوو. Oui monsieur

بدا الركح واسعا، وتجلى ذلك الضباب كأنه رقائق من نور، علّقت في الفضاء المأهول بالنجوم، وأمامه الحضور الأعجمي، حيث الصمت يسود المكان، كما يسود بيئته العربية. لم يكن على الخشبة المزدانة للرائي بألوان ذهبية تحيط بها خيوطٌ من لجين، سواه وبرنوسه الخفيف، الذي يبعث بلونه الوبري العتيق على الفتوة والأريحية رغم نيران الحمى. كان واقفا وحيدا يبعث بصوت جهوري للحاضرين نغمة العشاق:

---

[14] - تركي

[15] - من اللوحات المسرحية المعروفة لموليير تتحدث عن الزواج القسري.

تلك التي بينكم الآن، سيدة قلبي، وهي التي دعته للقدوم، فخلوا بيني وبينها. اطلبوا من كبيركم ألا يمنعها عني، ذلك المحترف برمي الرصاص، ذلك الذي يصدّها عني.

يا سادة..

لست إلا عاشقا من الزمن الحي. لا أقوى على الكتابة بالحرف البدوي فأنا أسير للحرف اللاتيني، لكنني تعلمت منه يا سادة..

أنني المحب لها والوفي لأشواقي، لست رسولا للعرف بجهله وخزيه، وإن كنت الفقير. ولست عرابا بالذهب لبنت الوزير. أنا الفقير نعم وهي الدّرر.

أنا يا سادة..

سوق هذه المدينة بل وأفقر من فيه، وهي سليلة باعتها الكبار وأغنى من فيها..

قبل أن ينجو تركي من الغوص في لجة الحب. ودّع الضباب فجأة أرض السوق، وانفض خيال المسرح من أمامه، وانتهى الدّور سريعا، وتبدى موليير كالسراب يحسبه الظمآن البدوي ماء، وصعد الركح عاليا، كبخارٍ يفرّ من أنياب الواقع. ولاحت الحقيقة أمامه بأم العين مع خطوات "عربية" التي أسرعت في الحراك كأنها تفر من الكمين، وصوت قوي شق الفضاء المحيط بها وبتركي:

- أنتِ.. يا عزوج.. توقفي!

ليس صوت القايد العربي بنشازٍ في هذه الديار. وهو يحمل بزهو سوط السلطات الفرنسية. ذلك القنّاص الفذ المتوج بسلطة الاحتلال، وعلى كتفه بندقية لتفتك بكل من يهوى القطا ويحبها. وفي صدره أكثر من نيشان، وعلى كتفه برنوس بلون الجمهورية الفرنسية. كل من في بحبح الصغيرة يخشونه، كخشيتهم ذات يوم من الفرنسي الذي أجهز على الشاب العربي، على مرأى من تركي الصغير ومسمعه منذ عشرين عاما.

خفق قلب تركي خفقة الوجل، لسماعه ذلك الصوت العسكري.

يا للمفارقة...

إن الوالد يطارد ابنته..أتراه يعلم بالأمر؟ أم أنه يطاردها دون أن يدري. لم يدر تركي ما الذي يجري. ولكن صدمته زادت حينما راحت "عربية" تسارع الخطى والنّداء الأبوي يطاردها. مع تسارع الخطى أدرك الجميع أن إكسير الحياة الكامن في سيقان هذا الكائن ليس البتة لعجوز، بل هو لفتاة في ريعان الشباب. واصلت تطارد قدرها، كأنها تفرّ من مواجهة المصير المحتوم.

مع تسارع خطوات الظلين، وقف الجمع القليل يتابع المشهد، ولا سؤال يطارد الفضاء البدوي إلا:

من هي يا ترى؟ ولم يطاردها "القايد"؟

بدت خطوات المرأة عصية على فارس مثله، تكسوه الصرامة وتغلّفه القسوة ويقطع في العادة كالسيف. لم يجد بدا من مناداة فرسه "عربية" لتطارد عن وعي منه "عربية". وبإشارته البدوية التحقت به الفرس ركضا يشق الفضاء من حوله.

لم يكن زوار السوق القلائل وحدهم من يرقبون المشهد الغريب، بل خرج نحوه كل من كان في الخيمة - المقهى، وفيهم بن داود الذي اقترب سريعا من صديقه تركي، وهو يصارع نيران الحب لدرّته، ممزوجة بلهيب الاندفاع للوفاء بمروءته نحوها.

همّ تركي على حين غرة –وجسده يكابر المشي وقد ألهبته الحمى- كي يتبع عبثا خطى الظلّين، كأنه بذلك يندفع لنجاة حبيبته من يد شيخ الأسرة والقبيلة. مع إرساله لخطوة أولى يغالب بها الألم والعجز معا، أخذته سواعد بن داود السمراء وهو يقترب من جبهته المتصببة عرقا:

- توقف..لن تستطيع فعل شيء..انتهى الأمر..

كبّلته كلمات بن داود، وحاصره عجزه، وأدرك أنه غير قادر على فعل أي شيء. وجلس يناشد الأرض أن تحرك من سكونها.

بقي تركي العاشق عاجزا.

لا يتحرك..

بقي الشاب واجما صامتا.. غير قادر أن يخطو إليها كما تعوّد. ولا يملك شراسة التحدي أمام رجل فرنسا والمدينة والقبيلة.

لم يكن بيده غير كتمان قلة حيلته، وجحد صوت الندم وقد انبعث كلهيب الحمى في أعماقه. وبدا عجزه أمام عينيه وهو بعد في **العشرينيات** من العمر وأي عمر؟ يفر كأولئك، الذين فرّوا إلى الفلاة كي يدسّوا خزيهم كما يدس السنور فضلاته، أمام إزهاق روح شاب كان آنذاك بمثل عمره، ولكنه كان أشجع منه، إذ مات في سبيل ثورته، وليس بعد صمته أمام من يحب..أدرك تركي أن الصمت في زمن الثورة ليس إلا شكلا من أشكال الخيانة. لكنه، وسط هذا القيد، مثقلٌ بأكثر من الثورة على الغير إنه مثقلٌ بشيء آخر بلوعة الحب وجبروته، لا أحد غيره وعربيته يدرك ما جبروت هذا الحب. فمن أجلها –وقد أمست فريسة أبيها- ترك هو الآخر والده، هاربا منه ومن رعي ما تبقى من غنم، وأودع تلك الأكفان الصوفية عند أبناء العمومة، ومن أجلها تصيّد ساعات السوق الأولى، ليظفر بنتفة زمنية مع من تفر الآن من مصيرها ومصيره. كان يرنو إلى رفقتها الأزلية، والسير على خطاها آناء الليل والنهار. لم يعرفها إلا من خلال صوتها الشجي وهي تسارع إلى أترابها من الراعيات ذات صباح، ولا يفصله عنها غير كنيسة Geneviève.

مُذّاك، ورجاؤه أن لا يحتوي في قلبه وذاكرته إلا أثير صوتها ليدفّئ صدره وأذنيه. كاد يبوح للأنام بعشقه لعربية. كاد أن يفضح المكنون ويبوح لدنيا بلدته بسرّ فرحته، وبالغ بهجته حينما ذابا سويا في كأس خمرة العاشقين غداة لقائهما الأخير، حينما تذوق لأول مرة رضابا بدويا لا تكدّره شائبة، وإذ به يتوه في عالمٍ من حلول. راحت أحاسيسه مع رشفة الحب تفرّ منه بهدوء لتنتقل إليها كأنها وافد جديد على بلاط الحياة. بدأت سكرة القبلات تحبو إلى قلبه لترويه بهجة وأنسا تاه فيهما الزمان والمكان وكادا أن يمسيا عدما.

غرقا في قبلة الهوى، وغرقت معهما الكلمات واختنق الهمس وطفى الشباب على بحر الزمن، وسكرا دون أن يدريا مدى نشوة العشّاق وحميا الكلف. في وسط تلك القبلة، التي لم يصدّق ساعتها أنها دامت كالخلود في كل ذرة منه، وما هي في واقع الزمان إلا طرفة عين، وأدنى من أجزاء الثواني. مع انتهاء اللحظة اللاهبة، بدا له ثغر عربية بابا من بلّور يدعوه البريق إلى لمس المزيد، ولكنه استعصى عليه، كما تفعل ريح الشتاء بالخيام، ومرت لحظة العدم سريعا، واستحضر معها لحظات الفرح وأخرى للأسى، كتلك التي جعلت عمه سالما يغادر إلى الأبد، وهي ذاتها جملة والدته بنبوءة الرّحيل. لاحت في ذاكرته ساعة السكر تلك قبلة الوداع ولحن البجع الأخير.

لكنه اليوم على جانب سوق الخميس أمام كل الناس، دون أن يقوى على البوح.

لم يطل ركض عربية ولا ركض الـ "عربية" وحوافرها تشق الأمتار التي تفصل الكائنين، لتهدأ بعدها عاصفة المطاردة الجينية. ويأخذ الوالد على ذراعه جسمها النحيف، وقد كشف الأمر وساد الصمت. استدارت الفرس بلجام صاحبها ليعود القايد بصيده سالكا طريق الديار، والناس وسط هذا لا تقوى على الهمس لا الحديث، ولكنها ترقب وتلاحظ.

ما هي إلا طرفة عين، حتى سقط القايد فجأة وقد سمعت كل من فرسه وكريمته، رنين ضربة حجر رميت من ساعد تركي على رأس الرجل الأقوى. كأن نيران الحمى أمدّت الفتى بلهيب من قوة، دعته إلى اختيار ما لا يخطر على بال لنجاة ما تبقى من كرامة العشق.

سقط شيخ فرنسا، ولكن الفتاة بقيت كالفرس الأصيلة تلك، ثابتة كالوتد المغروس على سطح البادية، وسواد المطية يبعث على الرهبة من غرابة المشهد وغموضه، وعلى سلخ ما تبقى من ضياء الشمس الكئيبة.

غالب تركي بعيدها كل جسده، وراحت خطواته تستعير من زمن الربيع الذي جمعه بعربية كثيرا من طاقة الجسد ولهفته إلى عناق الحبيب، عبر عدوٍ بدأته خطوات محتشمة فأخرى جريئة فثالثة أكثر سرعة. انطلق تركي بجسد بثّت فيه الحياة ليرتمي على ظهر الفرس، معوضا بذلك مكان السيّد، وراح رفقة درّته يطردان عنهما كثيرا من الأسئلة والاستفهام إلى من يراقبون المشهد الغريب. لم يسعه الوقت أن يغطي بعمامته البيضاء ملامح الوجه للتمويه. وترك الدّنيا بعيونها الشاخصة تدوّن ما تراه في حادثة لم يعرفها السوق قبلا.

انطلق تركي ممسكا بلجام فرس سيّد القوم وولي نعمة درّته، مدفوعا بثقة لا يعرفها المحيطون بمشهد السوق. فرّ برفقة ثروته المحشوة جمالا وألقا "عربية"، وبدت مثله مليئة باللهفة للوصول إلى شاطئهما المجهول الغاية المسمى الحب. الحب في أرقى صورة له وأنفسها. يتقاسمان معا عطر المدينة في تناغمٍ إنساني عجيب.

انطلقت الفرس وهي تحمل الروحين وكأنهما وهما على أفق بادية بحبح كتلة واحدة. تداعب الريح الخجولة عمامة تركي وقد تبخرت من جبينه وديان الحمى، وغادرت آلامها جسده الفتي، ولعبت النسمات في كبرياء بخمار العذراء. مضت بهما الفرس نحو الأمل والحياة، وكأنهما ملكين يفيضان على عوالم المدينة سحرا وجمالا.

باتجاه الجنوب، حيث الصحراء بشساعتها تنتظر العاشقين بأكثر من انتظار الأرض الظمأى لغيث الخريف، انطلقا على صهوة الفرس الأصيلة. وفي غمرة الإحساس بالنجاة ولهفة غموضه، شقّ الصمت الذي ساد السوق والمدينة لبرهة من الزمن، صدى طلقة من الرصاص الفرنسي بزنادٍ عربي دعت العيون البدوية المحيطة بالمشهد تشخص لرؤية جسدٍ يترنح من على صهوة الفرس البريئة على صوت قبعها[16]، وقد هوى كجلمود صخرٍ حطّه السيل من عل، ليلحقه على بعد بضع أمتار الجسد الآخر.

[16] - القبع: صوت يردده الفرس من منخره إلى حلقه، إذا نفر من شيء أو كرهه.

لم تعرف العيون المبصرة، أيهما ترك الآخر ... تركي أم عربية؟

بخطى بالكاد تطأ الأرض، وتغالب ألم ضربة تركي، اقترب القايد من مسرح الحدث وركح السقوط، معيدا البندقية الملتهبة إلى إبطه. وما هي إلا أمتار حتى دنا من الرّوحين، تنذر إحداها - الملقاة على الأرض- بالرّحيل عبر زفير مضطرب، تاه في فضاء البلدة.

أغوت النياشين وشهادات الرماية الفرنسية القايد، وملكه سرور بأنه أصاب هدفه، ولم يدر أن تجربته وخبرته وجبروته لم يصيبوا الهدف. لم يك يدري أن ملك الموت -بسطوته- لن يعطي الخيار لأحد، ولا يقطف زهرة العمر إلا بإذن خالقها. ولا يميز بين ذكر وأنثى.

ليست البندقية هي التي تختار الفريسة ولا "القايد" ولا فرنسا.

مع وصوله الواثق لمكان السقوط، لم يُعر الرّجل للجسد الأنثوي الحامل لجيناته أي اهتمام وواصل المشي نحو تركي، وإذ به يمسك برقبة الشاب بكل ما أوتي من قوّة السّاعد وهوى على رأسه بماسورة بندقيته الفرنسية، التي صوّب بها – دون وعي- نحو جسد "عربية". تنهدت "عربية" تنهيدة الرحيل، وقد ابتعدت في سقوطها من تركي لأكثر من ستة أمتار، وغادرت الفرس المشهد ولم تحفل بوقوف سيّدها وحيدا، وهو يعيد إمساك بندقيته بماسورتها الطويلة، كي يدفن في جسد تركي ما تبقى من رصاص. بعث الصمت بالرعب إلى المكان وكأن بالزمان توقف عن الدوران وبدا أن السوق أضحى مأتما بعد عرس. رفع القايد وقد غادر العقل كيانه بندقيته، وقد زخرفها العلم الفرنسي الثلاثي الألوان وصوبها نحو أنف تركي الذي ما فتئ يفاخر بعلوه:

- تعتدي على أسيادك يا خبيث..؟

وبعد أن استجمع قوته على زناد بندقيته، جدّد التهديد:

- ستريك هذه الماسورة، أنك وهي (مشيرا بناظره إلى جسد عربية المسجى) عبرةً لهؤلاء (مشيرا ببنانه إلى من تبقى في السوق).

توقف كل شيء، وطفا -مع الصمت- إلى كيان تركي شيئ من الشجاعة التي دعته إلى تحدّي القايد، كما فعل حين أرسل إلى جمجمته الصلبة والعنيدة ذلك الصخر، المرمي والمنتشر- بجانب سوق بحبح. بعث بتحدّيه وهو ملقى ولسان الحان يردد "**لن أموت جيفة**":

- لم أكن يوما عبدا لك..ربّي هو مولاي..

لم يكن بمقدور عبارة تركي بأن تزيد في نيران رجل مجرّب وعاجنٍ للأيام كالقايد، الذي سارع نحو إطفاء نار غليله، مقربا الأنامل من الزناد لإنهاء ما بدأه.

مع البرهة الفاصلة بين الموت والحياة، قطعت أصداء تهادت بسرعة إلى القايد وبندقيته، تخيلها في البدء صوت القطار وهو يبعث باحتكاك سكّته إلى فضاء حاسي بحبح على بعد أميال. ولكن الأمر لم يكن إلا اقتراب العربة الحديدية التي تجرّها فرس أشبه بتلك التي ذهبت مغاضبة للقايد ولأهله. حملت العربة المزدانة بثالوث ذهبي الراهبة Geneviève إلى محاذاة السوق، حيث يرتمي العاشقان وبينهما برزخ من أعرافٍ لا أحد يدري معناها. نزلت الراهبة من عربة الكنيسة، وبإزائها الجندي بيير، وتوجّهت للقايد:

-Vous êtes fou?[17]

كلمات الراهبة جعلت القايد يفيق من سكرته، ويقوم من على جسد تركي. اقتربت هي الأخرى من جسدها، وأرسلت نظرات اختصرت الدّهشة، وإذ بتعابير وجهها تدعو لسانها للقول استغرابا:

Tu oses?[18]

بدت النصرانية -وسط جنون البادية - أكثر رأفة بفلذة كبد الرجل. ولم يكن بمقدوره وهو الأدرى بتأثيرها على أمثاله وعليه ممن يتبعون الإدارة الفرنسية، إلا أن ترك البندقية بعيدا، باعثا إلى رفيق الراهبة

[17] - أمجنونٌ أنت؟
[18] - أتجرؤ؟

الفرنسي استجابته لأمر سيّد المكان. استجابة القايد بعثت للحاضرين أن فرنسا هي صاحبة الأرض. وها هو جنديها يجمع شتات المشهد، وفلول الصراع البدوي. كابر القايد زعيم القبيلة، وسط هذا الركام من الأسى بحمل "عربية"، وافتكّت Geneviève تركي من بين يديه، وأشارت إليه بالتنحي جانبا.

كعادة الدّنيا، انتهى الأمر على غير ما بدأ عليه. وراح صمت حاسي بحبح الذي غاب لهنيهاتٍ يكبّل المكان، ورجعت الرّاهبة والعمر يطاردها تسوق عربتها اللاتينية وهي ترقب المشهد رويدا رويدا، وترسل عيونها إلى الأفق بأكثر من سؤال، زاده وقوف الفرس "عربية" إبهاما وضياعا. غادرت الرّاهبة بلباسها الفرنسي الغريب هذا المشهد الغريب، وأجلست بقربها تركي، وهي تقول:

- لازمك تغووح تووركي... immédiatement !

اختصرت جملة (الرحيل حالا) العديد من الأحاسيس، وزادت من غربة تركي، فبعد المكان والزمان ها هو شبح سالم يدنو إلى ذكراه.

- ترى أين عمّه الآن؟ أميّت أم نجا مثله؟

قطار التّل

لولا الهوى لم ترق دمعا على طلل
ولا أرقت لذكر البان والعلم
الإمام البوصيري

لم يكن بوسع أيٍ من ساكني الخيام أن يتوقع وجهة سالم. بل لم يدر في خلد أحدهم، أن محطة حاسي بحبح ستكون نقطة الانتقال لهذا البدوي الشاب من خيمته إلى حاضرة فرنسا.

كان القطار وهو ينهش السكة بنهم، يبعث بجمره عبر جبال التل وكأنه يبعث بحرقة وشوق إلى تلك السواعد – وقد كان سالم أحدها- بكثير من الوفاء التي خاطت بإتقان خطوط الحديد المتين، التي عليها يسير بمغامرة وقوة.

على عكس صوت لهيب المحركات الفحمية الصارخ، وهي تجرّ قطار الشمال بقوة الأحصنة العربية، هيمن الصمت على أولئك الشباب وقد اختيروا بعناية فائقة، إذ بدت أطوالهم وأوزانهم متقاربة إلى حد التماثل. ومع هذه الفتوة والعنفوان، كساهم طابع الهدوء وغلب على فطرتهم الصمت، وكأنهم جينيّا أشقاء أو توائم.

أُجبر سالم طوال المسافة التي تقترب من 150 كيلومترا، على التواصل مع رفيقه القديم الجديد الأغواطي.

كان لذكرياته في منطقة الواحات بصمات، ولها أصوات. جمعتهما محطة حاسي بحبح، ليخوضا رحلة التعب من جديد.

"الأغواطي" ليس نعتا لذلك الشاب ولمكان منبته فحسب، بل هو الاسم العائلي لعلي. تعوّد الجند في مثل هذي الظروف على مناداة بعضهم بمكان الميلاد تسريعا للتواصل وتدقيقا للهوية. غير أن سالما شذّ عن القاعدة، وأصبح الاسم أكبر من المنطقة، فهو نايلي، القبيلة التي ما تزال تهيمن تعدادا على الجلفة، وهي لا تبعد عن الأغواط شمالا إلا بـ 110 كيلومتر.

- يا سي سالم، عن حاسي بحبح وسوقها بدأت حديثك، وعرجت على حكايات الوالد...ولم تكمل؟

بابتسامة البداوة أجاب:

- عن بحبح؟
- بلى، لقد بدأت الحديث بالفرنسيات فيها...
- وهل صدّقتني؟
- وكيف لا أصدقك...وهن مفتونات بالعيون البنية وبحرارة باديتها هه.. هيا تكلم، وكفاك عزلة.

يحن سالم وهو يحدّث الأغواطي عن Geneviève إلى الديار لا إلى عيونها، التي طالما راقبها من بعيد. لم ينس ساعة رآها وهو تلّف على ساقها البيضاء خلطة الترياق التي تذكره بالأم وبالديار وبابن أخيه تركي.

لم يعتد سالم من قبل على محادثة الأغواطي -أو سواه- بمثل هذه المباشرة، ولم تكن رفقتهما بالأغواط وهما تحت إمرة قائدها الفرنسي تسمح لهما بالبقاء أكثر من دقائق إلا في النّادر. على الرغم من بقاء كل منهما ساعات في الحراسة، فكلما دخل أحدهما غادر الآخر.

- صدّقني يا لغواطي، ليس في بحبح من الفرنسيات الكثير...
- دعنا إذن من هن...وأخبرني عن الوالد
- لم تصر على استحضار الوالد؟ وكأن لك معه قصة.

ابتسامة أخرى من الأغواطي، عكّرت لجة الصمت السائدة:

- والله بـدا لي أن ذاك الكهـل (وهـو يشـير ببنانـه إلى رجـل قـد تجـاوز الخمسين مخزون في لباسه العربي وتعلوه عمامة) قد أحيا في السـؤال عنـه لا أعرف لم؟

- أليس من رافقنا من محطة المدية...

- إيه على المدية.. بلاد التل الخصب، إنها درة الأماكن. كـم كنـت أحلـم بالعيش فيها..

- وما منعك؟

- أتستهزئ يا سالم؟... كنت أحلم بها على صهوة فـرسي، لا جنـديا مجـبرا على المرور قربها دون هوية في قطار الشمال؟

- الأحلام يا صديقي لا تتحقق لجنود مثلنـا، أمـا الهويـة فيكفينـا وثيقـة العبور.

أخرج الأغواطي من جيبه ورقة تحمل رقما وصورة، قائلا له:

- لسنا إلا مساجين في حبس القطار هذا..وما العبور إلا للمجهول.

- يبدو أن نسمات التل أحيت فيك الحنين إلى الصحراء.

بدت المدية أمام علي كما تصورها، غير أن أصوات محركـات قطـار الشمال، كأنها أقنعته بأن ظلال الواحات -حيث ترعرع- لا تضاهيها نضارة التربـة القمحيـة، التـي رَبَـتْ مـن خـلال سـهول متيجـة، المليئـة بأشـجار الحمضيات.

عرف الصديقان بعضـهما بـالقرب مـن عاصـمة الواحـات "الأغـواط" وكبرت إلى السماء كجريد النخيل صداقتهما.

وفيها عرف سالم ما الحب؟ وما العشق؟ وأدرك باكرا -كصـديقه- أن بين كثبان رمال صحراء الجدباء، صوت خرير الحب يُسمع من بعيد. وعـبر أكماتها تتهادى قطرات العشق، أكثر من تلـك التـي تتبـدى لهـما في باديـة حاسي بحبح أو تلال المدية.

لم يكن **علي الأغواطي** وحده من يحن إلى مسقط الرأس، فسالم ومع ابتعاده عن حاسي بحبح بأكثر من 180 كيلومتر، تكاد الخيام تلاحقه وتبعث إلى بصره ظلالها على سفوح جبال "**الشريعة**" المطلّة برهبة وكبرياء على مدينة البليدة. ومع لحن الخيام الأزلي، تستفيق ذكرياته محملة بدندنات فاتنته بالأغواط، حيث لا ظل غيرها كان يمنع عنه لهيب البادية الحارقة.

أيقظت صفارات القطار الجنود العرب من عوالمهم، وأسكتت بصخبها حديث الذكريات بين علي وسالم. وأمهلتهم لتناسي الزمان والمكان بضع دقائق، ليلقوا بأمتعتهم الفقيرة، عساهم يستريحون قبيل إكمال المغامرة. بدت لهما مغامرة مجهولة الهدف والسبيل.

مع توقف قطار التل، توقفت لحظات الانتظار. أرسل فرونسوا قائد السرية إلى الجنود أوامره:

- Descendez les indigènes (أنزلوا أيها الأهالي)

وبعد أن وطئت أقدامه الخشنة محطة "شفّة"، أضاف نداء يعزّز به سطوته:

- Allez! Aux mangeoires (إلى العلف)

لم تكن لفظة "العلف" بغريبة عن قاموس سالم. فما فتىء يطارد أغنامه نحو أماكن الكلأ، ولكنها أماكن في الفضاء الرّحب دون قيود أو أغلال. لم يكن هناك على مساحات الأرض الرحبة صناديق من الحديد تُملأ فيها الأعلاف. لا شرط يفرضه سالم على أغنامه حين تدافعها إلى الكلأ، غير المسار المرسوم..

تنهّد سالم في سرّه، وآلمه أن يسمع من فرانسوا وصفه للجند وله بالأنعام. وراح يخاطب نفسه في طريق التل المشابه لذلك الذي تركه في حاسي بحبح:

لقد كنت أكثر كرامة منّي يا أغنامي.

*

لم تكن أغنام سالم على فطرتها، هي وحدها من حفظت لنفسها الكرامة. بل أرض سالم وموطنه كانت أكثر الفضاءات تمسكا بها. كانت تلك الأرض ومواشيها كنزا للعاملين عليها، وتمسي وتضحي شرفا لهم. عنها يدافعون وقد يدفعون حياتهم ثمنا لها. تماما كما دفع الشاب "لعربي" حياته ثمنا لثمن كبشه، أمام مرأى تركي وأهل المدينة بمحاذاة السوق.بدا لعربي رمزا للتضحية أمام الفرنسيين. لم تسمع المدينة من قبل أن أحدهم عصى أمرا للغاوري. دفعت دماء لعربي ثمن كلمة "لا"، وسالت قانية على تلك الأرض، التي تركها سالم، ولم تبخل عليهم بحنطة ولا بكلأ لأغنامهم.

لم تبخل عليه وعلى أهله بوافر ثمارها وخيرات أنعامها. أنعام كان لها سوق قبل تلك التي تدشّنها السلطات الفرنسية مع مطلع الثلاثينيات.

أطلت نحو ذاكرة سالم من جديد صور البيع، عبر مشهد لوالده عزيز- وهو الذي يربي أغناما مغرية للقلب والعين- وقد ابتاع كبشا أملح من شيخ قادم من الجنوب. باحثا وهو يدفع أغنامه عن الكلأ، متوجها إلى أرض الخصب والمياه في التّل الشمالي. لم تك تشذّ وسط القطيع الفضي غير الشاة الدّرعاء، وهي تزاحم كي ترعى كما ترعى البقية.

- قرّب يا سي السّعيد قرّب..

جملة ذكّرت سالما باستضافة الوالد للموّال الجنوبي:

- الله يقرب ليك الخير يا سي عزيز

وأضاف وهو يقدّم لأهل الخيام ابنه البكر لعربي:

- هذا ولدي "لعربي"، وقد سمّيته باسم جدّه.

واقترب من عزيز هامسا:

- وهو مثلك يا سي عزيز، مستقيم كوتد خيمتك هذه.

مع ابتسامة أليفة من الشيخ عزيز، بعث بدعائه المعتاد:

- الله يبارك فيه وفيك..

تصافح الرجلان بحرارة البداوة، وراح عزيز بعدها يبحر بعينه نحو موج المواشي، تاركا ليده الغليظة تفحص أكتاف الأغنام، وهي تتفاوت في الامتلاء والاكتناز. لم يكن الاختبار ولا الاختيار بالأمر السهل، إذ لم يكن ضمن القطيع غير كبشٍ أغرى والد سالم، ودعاه إلى الاهتمام به دون غيره.

كادت الصفقة أن تكتمل بالابتهاج بعد أن استلم لعربي فرنكاته الذهبية نيابة عن والده، مقابل الكبش المغري مع بركات الأشهر الحرم، لولا اقتراب موفد من السلطات الفرنسية.

كدّر الفرنسي بهجة لعربي، وهو يفر من المكان. وبدا له أن فرنسا كلها عكّرت صفو صفقته البعيدة عن السوق. لم يكن الفرنسي وحده من زاد المكان ضيقا، فها هو القايد وبلسانه العربي المبين يلاحق لعربي بعد أن أشار إلى والد سالم بدفع نصيبه من الضريبة. تقتطع السلطات من كل طرف العشر، وإلا يكون مصير البضاعة إلى زريبة القائد الفرنسي، غير البعيدة عن مضارب القايد العربي، الذي يأخذ نصيبه لا شك.

لم يكن خفيا على عيون فرنسا، التي أرسلها القايد وجنده صبح مساء أماكن البيع وقيم الصفقات البدوية.

كانت الأضاحي تباع بالقرب من الخيام، ومنها إلى أصحابها، وعلى رأس كل الباعة الأكبر سنا والأكثر خبرة. ولولا ذكرى موت لعربي بعيد تحدّيه للفرنسي وقانونه، لكانت كل الصفقات تتم كما خطّط لها.

*

استفاق سالم من عبث الفرنسيين بحاسي بحبح خلال افتتاح سوقها على عبثهم في التّل. ومضى هو، ومن تبقى من رفقائه الشباب العرب إلى ما أسماه فرانسوا "العلف" البشري.

جلس الشباب العرب بالقرب من المحطة، واستند كل واحدٍ منهم على جدار من الجدران الندية، ومع أول لقمة يغترفها من الصحن الفرنسي، وقعت عينا سالم الحجلية على وجه شاب يميل لونه إلى الحمرة ويكسوه صفاء غريب. بدا نظيف الهندام، ورغم نضارة الشباب الطافحة من كيانه، لا يبدو أنه من الجند أو ممن اعتاد على حمل السلاح. لمس سالم مع التحديق فيه ترددا في خطوات مسيره، إذ يطرق حينا ويبعث ببصره إلى الأرض أحيانا أخرى، لكأن شيئا ما يشغل هذا الشاب ذي الملامح الحضرية. تزامن مسير الشاب مع مرور القائد فرانسوا، الذي بدأ يصيح على الناس، وقد اقترب من شيخ بعد أن أخذ منه التّعب كل مأخذ، وسرق منه ما تبقى من قوة. وعلى محاذاة المحطة، نهره حتى رجّه:

- Eh toi! Debout

- Je ne peux pas monsieur, je suis malade[19]

قبل أن ينطلق السجال بين الشيخ التلي والضابط فرانسوا، بعث الشاب بجملة هادئة، يحيط بها شيء من الانكسار:

- C'est mon père mon colonel, j'allais l'accompagner à l'hôpital de ville[20]

- Ta gueule! Prends-le vite loin d'ici, c'est interdit d'y rester[21]

لم تمض على الأسئلة الفرنسية وأجوبتها الجزائرية لحظات، وسالم يراقب ويتابع وقد فك شفرته اللسانية، حتى هوى الشاب على الضابط بسرعة البرق، وهو يصيح صيحة هيستيرية:

- الله أكبر

تأكّد سالم والجند العرب المرافقون أن ضربة التّلي، التي أسقطت الضابط القوي وأسكتت فمه الأعجمي، مميتة. إذ بدا جسده المرمي بعدها دون أدنى حراك، وأمسى خلال أقل من ثانية، ككتلةَ من اللحم امتص الهواء منها كل طاقة.

---

[19] - لا أستطيع يا سيدي، أنا مريض

[20] - إنه والدي، سأرافقه إلى المستشفى

[21] - أصمت، خذ هذا العجوز سريعا. ممنوع البقاء هنا

وما هي إلا لحظات حتى سادت من حول المحطة فوضى عارمة وجلبة كبيرة، أشعلتها طلقات نارية هيستيرية بيد جندي آخر، رابضٍ غير بعيد على أرض المدية، وإذ بإحداها تصيب الأغواطي. لم يسعْ سالم التفكير ولا الخبرة كي يقوم بأي شيء غير اعتناق الأرض، والبقاء كباقي الجند العرب المحمّلين على قطار الشمال، على أهبة الاستعداد. وكلهم بأيادي خاوية من السلاح.

*

واصل قطار الشمال رحلته باتجاه الجزائر العاصمة، وعبر سكّته الحديدية الممسكة بصلابة على أرض المتيجة منذ أكثر من نصف قرن اتّسعت دائرة خوف الجند العرب ووجلهم من الآتي.

جاءت الأوامر من العاصمة بأكثر مما توقع القادة والجند، توصي بالتنقل إلى البليدة، إسعافا للجريح الفرنسي- فرانسوا، وربما الاهتمام بالأغواطي جنديا.

باتت صورة فتى المدية وسط زحام الأحداث والأفكار مطبوعة في ذاكرة سالم، ولاحقته آناء استعداده وباقي الجنود المتعجل والاستثنائي للمغادرة، وهو يحمل أمتعة -لم تحفل مثله براحة- ولا شيئا يسد رمقه غير كسرة خبز من حنطة سهول متيجة، بالكاد عرفت طريقها إلى جوفه البدوي الخاوي. خبز عاد بسالم ورائحتُه إلى خيامه هناك بحاسي بحبح حيث كانت تنبعث روائح المخابز التقليدية في الحاضرة على بعد أميال منها.

ركب الجند العرب، يتوسطهم سالم ورفيقهم المصاب على متن قاطرة البليدة الثانية، ومن ضمنهم ممرض فرنسي يبعث رغم ما جرى بشيء من الوداعة إلى المصاب. أما الضابط فرانسوا ورعايته الطبية فقد كانوا في الطّليعة. كان جرح فرانسوا يبعث على الغرابة والحيرة معا. فهو غائر إلى درجة أن النزيف لازمه حتى بعث به إلى غيبوبة مفاجئة، أعجزت مرافقيه من فرقة التطبيب على التعامل معها. ورغم صلابة الرّجل وقوة بنيته إلا أنه لم يصمد أمام يمنى التلّي. أما آلام الأغواطي -المسنود على كتف سالم-

فقد بدت أقل من إصابته، مما دعا سالما إلى محاولة الحديث إليه كي ينسيه الجرح وآلامه، ولكنه عبثا يفعل. إذ لم يكن بوسعه ذلك ولا بوسع المرافقين العرب، وما زادهم مرارة وحسرة أن الفرنسيين نزعوا عنهم كل الأواني والأشياء المعدنية، من مفاتيح أو سلاسل فضيه أو حاملات سجائر كي يأمن القادة جانبهم فيما تبقى من رحلة، وكي لا تغري الحماسة بعضهم على التصرف على غير هوى الفرنسيين.

لم يكن الحدث الاستثنائي الذي وقّعه التلي بسلاحه الأبيض البوسعادي[22] على جسد فرانسوا، في حسبان الضابط ولا في حسبان رفقائه الجنود وهم من أعراق أوربية مختلفة.

لم يتح لسالم أن يسأل عن حال رفيقه الأغواطي من الممرض الأعجمي، وهو يجهل اللغة الفرنسية، وكيف له ذلك و مدينته البدوية لم تعرف صفا دراسيا إلا وهو في سن العشرين. ولكن ما أذاب هذا الحاجز وأطفأ جذوة لوعة التواصل هو رؤيته لصفحات من جريدة فرنسية، بدت أنامل وعيون الوافد إليهم من محطة المدية تداعبها بتركيز وروية. كان الجندي العربي يحمل الجريدة بعيون بدت متعبة، وكان أشبه في عيون سالم بصديقه الأغواطي ملمحا. باغته بالسؤال:

- واش سمّاك الله يا خوي؟
- رابح بولعراس
- يرحم والديك يا سي رابح سال الغاوري على لغواطي با لاك يفهمك؟

كان جواب رفيقه هو الصمت، كما كان جوابا دائما للمجموعة.

اقترب بعدها من سالم محاولا أن يتأكد:

- أنت بدوي؟
- أنعم..
- لا تقلق على صديقك...الضربة سطحية

ثقة الرجل دعت سالم، إلى معاودة السؤال:

- ألهبت الرصاصة كل ساقه وتقول سطحية...يا سي...؟

---

[22] - نوع من الخناجر يصنع بمنطقة بوسعادة الشهيرة، غير بعيد عن جبال أولاد نايل

- لا تقلق. وليحمد الله أن مصيره ليس كالضابط

وانطلق رابح بعد تحية الممرض بسؤال بدا أن حركة اليد أبلغ منه:

- Ce n'est pas grave.[23]

كانت إجابة الممرض المقتضبة بردا وسلاما على سالم، وأدرك سريعا أن مسألة اللغة التي يبدو أن رابحا قد يتقنها ليست عائقا للتواصل.

ليضيف رابح:

- لا تحاول أن تجهد صديقك بالحديث، حتى نصل إلى المستوصف.

كأن بالقدر أرسل برابح ليمسي أنيسا مع صمت صديقه الموجوع. وها هو شاب آخر من أبناء البلد، سيتقاسم مع سالم هاجس المهمة البعيدة، وساعات النهار الطويلة.

كان نهار الجنود العرب طويلا، وهم يرقبون الصمت الذي تخدشه زمجرات قطار التّل المرهق، و لم يهون على سالم طول المسافة وجرح الصديق والصمت القاتل غير رفقة رابح التلي.

لم تمر غير ساعة حتى استقرت القاطرات فوق محطة البليدة، وأجواء المساء كأنها تبعث بنسمات مرحبة بالمتعبين، استعارتها من ربيعها المزهو بشذى الياسمين، والمنبعث من كل فنن من أشجار الحمضيات المستلقية بوقار وكبرياء على بساط متيجة الخصب. لم يكن ينافس ذلك البساط الممزوج بين لون "الكليمونتين" البرتقالي، ولون الليمون المكتنز باصفراره النضر، إلا لون الحنطة الذهبي الباعث على غنى البلد، وسط الفقر المدقع الذي يلاحق بطون العرب المحمّلة في قطار الشمال.

تاهت كل العيون التي عشيت بسبب الجوع طويلا في هذا السحر الأخّاذ، واستيقظت في أعماق الأغواطي تلك الوشائج، واستفاقت -على أحلامه التي باتت حقيقة- عيونه برؤية جنّة المتيجة.

---

[23] - ليست الوضعية خطرة.

رويدا رويدا، توقف القطار واستراحت محركاته، ودعت صفاراته ذات النبرة الفرنسية الجنود العرب إلى النزول. استجاب سالم ورابح والبقية لأوامر نائب القائد نيكولا بحمل رفيقهم علي، كي يبعث به إلى المستوصف العسكري. وعلى عربة الجيب الإنجليزية حملت قائدهم فرانسوا. غادر دخان المحرك وظلالهم المكان، ولم يبق في المحطّة منتظرا غير عربة من القرون الوسطى وحصان متعب بالكاد يجرها، وبضعة شباب عرب مصطفين بأمرٍ من نيكولا، الجاثم فوق أرض البليدة. وجد الرجلان نفسيهما متأبطين الأغواطي، ويجلسانه على تلك العربة متّبعين دليلهم إلى المستوصف.

بعد أكثر من ساعة، عادت تلك العربة البالية إلى المحطة ولم تعد سيارة الجيب، عادت حاملة معها سالما ورفيقه، ورمت بهما على مرأى من نيكولا الشاحب، ليدخلا مع باقي الجند في الصف العسكري، متأهبين وهم دون سلاح للمغادرة، منتظرين بذلك أوامر نائب القائد، الذي ترقب عيونه الضيقة الزرقاء كل صغيرة وكبيرة، بدءا بالوقوف على بعد ستة أمتار منه، ووصولا إلى صعود القاطرة بالتناوب وبالقدم الشمال، تلك التي تستحضر مسير الحرف اللاتيني واتجاهه. بهذا الخط المائل كُتبت على بطاقاتهم الصفراء أسماؤهم من جديد، وأضيف إليها وزن كل واحد وعمره ومن أي منطقة من بر الجزائر هو.

كان سالم يحمل بطاقة أخرى، إضافة إلى بطاقة هويته العسكرية. فمنذ أن كان بالأغواط، وهو مفتون بذلك الخط الفرنسي المائل الذي يتوج بطاقته الأعجمية. خط يعيد إلى سالم صورة قائد المنطقة -حيث كان مشرفا على حراسة بيته- وهو يسبح بأناملِه مع تدوينه لاسمه بالحرف اللاتيني Salem من خلال الحبر الأرجواني. لا يعرف أبدا لمِ يذكّره اسمه بـ : أورسالم[24]، ربما جانبها الغرافيكي أو الفونيتيكي يحيل إليها.

[24] - أورشليم

أمسك التّلي برقّة واستفهام عبر إبهامه والسبّابة تلك الورقة اللاتينية، وراح يهمس في أذن سالم:

- اسمي رابح، وقد كتب على البطاقة Ray لست أدري لم؟

فما كان من سالم إلى أن همس هو الآخر، في أذن صديقه :

- على الأقل استطعتَ إدراك الفرق..
- لا فرق بيننا سوى أنني عربي باسمٍ لاتيني، وأنك في مقام أبي..

انفجر العربيان ضحكا، وكأن بالهواء المنتشر حولهما، قد غار من همسهما فأغرى عليهما الصخب.

لم يكن الضحك وحده ما أنهى حالة السكون، بل صفارات قطار التل بدورها تعلن عبر محركاتها عن وجهتها نحو ما تبقى من شمال وتبعث إلى أرجل الجنود العرب بأمر الولوج إلى القاطرات مع "زواداتهم" النحيفة كأجسادهم. كان سالم هو أول الراكبين، بعد أن بعث إليه رابح بالاحترام الذي يجرّ خلفه حقيقة لا تخفى:

- هيا اركب يا أبتي ..هه.

مع انعكاس آخر خيط من نور الشمس على وجه سالم، بدا الفرق في السن بينه وبين البقية كما لم يظهر من قبل. سالم هو البكر إذن ورابح هو آخر عناقيد الجند العرب.

مع بقاء الجميع في القاطرة الوسطى، عاود الصمت حط رحاله. ولولا سعال هنا وهناك من جرّاء نفسٍ من سيجارة أو اثنتين، لأعتقد سالم ورابح أن الجند صمٌ بكم.

- يبدو أن التّعب يهيمن على القطار كله؟
- بلى يا صديقي.

أخذ رابح، كالبعض من الشباب المرافقين، سيجارة سمراء ضامرة وأشعلها بما تبقى له من ثقاب بالية، لا تزال محفوظة بكبرياء داخل علبة "الكوكارد" الشهيرة. مع أخذه لأول نفسٍ جافٍ منها، أرسل إليه سالم بسؤال كاستهلال لرحلة شاقة:

- لم اخترت الانضمام للجيش، وأرضك أخصب الأراضي؟
- أتمزح؟
- لا. أنا أسألك بجد..
- أي جد يا سالم. ..مجبر أخاك لا بطل.
- ومن أجبرك؟

لم يكن سهلا على رابح إخفاء استغرابه لجهل صديقه البدوي أن أمر التجنيد جبري وإن جاء بثوب التطوع. ولولا إدراكه أمية الرجل لقرأ عليه نص قانون 03 من فبراير 1912 الشهير.

- يا سي سالم، أتظن أنني أتوق إلى خدمة الـ gaouri، لولا سطوة القوانين. ورغم ذلك أخبرني أنت..ألم تكن مجبرا على القدوم معنا؟
- لا. لم تجبرني غير الحاجة.
- ماذا؟ أي حاجة؟

يدرك سالم جيدا أن هذا الشاب القادم من التل، عانى مثله الفقر والفاقة. ولكنه لم يعهد أن يسمع في دياره البدوية، التي غادرها طواعية مع شيء من الألم أن شابا التحق بالجيش تحت السوط والسيف. بل كل ما سمعه أن بعضا ممن التحقوا بالجيش خلال عشرية خلت، كان أشد ما أغراهم الـ 150 فرنك المسكوبة في جيوبهم الخاوية نهاية كل شهر. كان أي فرنك يعني الاحتفاء بساعة من الحياة، كانت العملة الفرنسية إشارة لاستقلال المرء عن أسرته وعن الخيام، التي لم يعرف أهلها غير رعي أو بحث عن كلأ، وفي أحسن الأحوال صفقة رابحة مع نهاية كل خميس.

بين أسئلته المتأرجحة بين شفاهه وآذان رابح، لم يستشعر سالم كم من الوقت مضى على مغادرته محطة قطار الشمال. حتى بدأت تسري إلى كيانه أحاسيس بالحنين إلى خيام حاسي بحبح، التي تبعث إليه بالسلام من بعيد، وهي تذكّره بتركي الصغير القابع في صمت بمحاذاتها.

*

تصادف، حين غادر تركي مستشفى حاسي بحبح، أن كان يومه يوم خميس. لا يُعرف هذا اليوم في ذاكرة المدينة إلا بسوقها الشعبي. خرج بخطى بدت لرفيقه الممرض الشاب كأنها استعارت من الثلاثين كثيرا من الوهج والألق. خطوات أغرت تركي على الاندفاع بعيدا عن المستشفى محاولا تناسي صحبة عصاه الخيزرانية. لم يشأ محمد أن يلح على الشيخ – وهو على ما هو عليه من نشاط- كي يمتطيا إحدى سيارات النقل الموجودة بكثرة أمام بوابة المستشفى والمعروفة لدى السكان بـ "**النقل الحضري**". غلبت مكابرة الرّجل حرص الشاب وراحا في صمت يختفيان عن الأنظار شيئا فشيئا، والطريق الموصل إلى قلب المدينة يدفعهم بشوق وألفة.

لم يدم صمت الجيلين ولا ظلّهما طويلا، حتى انتبه تركي بعين السنين، أن عيني رفيقه الممرض قد تبعتا ظلا أنثويا، يسير بدلال وغنج ويُبدع في استدراج نضارة العمر من خلال بؤبؤ الشاب. عيون راحت تلتهم غير واعية كل فاكهة من أفنان الفتاة الهيفاء، التي بعثت مع نسمات الريح إلى رئتي الرجلين بعطرٍ لا تقتنيه إلا مها ابنة مدير المستشفى الساكنه غير بعيد عن آخر غرفة من المستشفى. لم يكن محمد وحده من وصله عبير مها، وكأنها لم تغر جيلا عاصرها فحسب، بل أغرت بسحر الوجود الإنساني ما تبقى من أنفاس النشوة في روح تركي حتّى أيقظت فيه "عربية". يشترك كلاهما في إغواء البادية. زادت الرياح المواجهة لثلاثتهم من لهيبه، وقد استعر مع ذرات العطر والرّغبة، وقد أذكت ما كان مدفونا من نزوات وفتنة.

طريق مها طريق طويل، إذ يفصل المستشفى الشامخ في أول تلة تطل على المدينة ووسطها بحوالي 500 متر إلى الجنوب. ولولا علة تركي لسابق محمد خطوات مها، مثلما تعوّد كلما صادفها. ليبعث إليها -رغم خجله الفطري- ببوح اللسان بما في داخل بدوي مثله، أمام جبروت جسد تآلف مع روح تبعث بسرّ أخاذ، لا يبدو أن كثيرا من الإناث يحفلن به. يدعوه هذا الائتلاف الرّهيب بهوسٍ إلى إشباع رغباته، غير أن جليد الصمت يطفئ لهيب العشق الذي يسكن محمدا منذ سنين. أنهى تركي شغف الشاب بمها، وبخطواتها:

- تمهل يا سي محمد...عمّك لا يجاري خطواتك الشابة.

أرسل محمد بدوره مزحة إلى العجوز كي ينسيه الدّاء وما بعد الدّاء:

- لقد تماثلت للشفاء يا سي تركي، وخطواتك بدت أسرع من خطواتي..

كأنه استجاب للغة عقله، التي تطارد نغم قلبه، كما كان يطاردها مع الضحى أو حين تمسي. كي يبتعد عن جسدها الذي لا يبوح له بسره فحسب، يحاول محمد نسيان إغراء تلك الروح الكامنة فيه...ولتكن ذكرى. فكم أغرت مها من قبله الكثيرين، وليس صديقه عمر ببعيد عن المشهد العشقي. كما أن الفارق بينه وبين مها، من حيث النشأة والأسرة، كالفارق الذي كان بين تركي وعربية.

استجاب محمد لطلب تركي. ومع ثقل خطاه بعيد رحيل مها عن فضائهما، استحضر نقاشاته مع تركي، وسمح لنفسه بسؤاله، وقد دفعته على ما يبدو سحابات الوله التي كسته حين شاهد مها:

- ألم تعاشر امرأة في حياتك؟

لم يبد تركي كبير استغراب، وقد قفزت إلى ذاكرته المحشوة بخبرة السنين، أن الشاب يريد متنفسا بعد لهيب الرغبة الذي أيقظته ابنة المدير:

- بلى

اشتعلت مع نيران محمد التي استعرت لرؤية قدّ مها الفاتن، نيران الرغبة في معرفة التفاصيل. اقترب من تركي، كأنه يلوّح له همسا ببداية الحكي:

- أيّا سي تركي احك لي؟

ارتسمت ابتسامة مضى زمن على مغادرتها لوجه تركي، هذا الوجه الذي غزته فجأة، تجاعيد لم يكن يقوى على رؤيتها قبل دخوله المستشفى:

- أنت الآن في فورة الشباب.. وأدرك أن كل منا يحتاج إلى لحظات يفضفض فيها بكل شيء...هي أشبه بلحظات السكر. لا أخفيك يا سي محمد، أنه لم تكن لي جرأة الحديث إلى فتى أقرب إلى عمر الحفيد من أترابي...

- لا عليك يا سي تركي. أنا الآن في سن الرشد كما ترى...وكلانا بعيد عن آذان الآخرين.

رسم الشاب هو الآخر ابتسامة ماكرة، في طياتها رغبة متجددة في تتبع المشهد الأزلي، الأكثر جذبا للسمع والبصر. نسي الرجلان أن خطاهما تسابق الزمان والمكان. وراح الحديث، كما كان في أوائل لحظات لقائهما يأخذ مجراه، وراحت أسئلة الأجيال وإجاباتها، تذهب وتعود كحركة البندول المعلّق على حائط القدر.

- عرفت فتاة من دياري واسمها "عربية"...وقد مرّ على قصتي أكثر من خمسين عاما يا صديقي الشاب. خمسون عاما، اختلفت فيها كل الأشياء في هذه المدينة. ما عادت هناك تلك المحطة التي عرفتها ولا تلك الكنيسة حيث شاهدت " عربية" لأول مرة. غريب أن يعرف فتى مسلم الحب بالقرب من الكنيسة. لقد اختفت حتى أصوات من عرفتهم يا صديقي. وغابت عن أذني كل أغانيهم.

- الأغاني؟

- نعم الأغاني! لو كنت عرفت السوق مثلي، وعاصرت كل سنينه، لأدركت أن للسوق ميقاتا مع كل معزوفات الدّنيا.

- سمعت عن الرّبابة، ولم أسمع عن غيرها.

- لم تأت الرّبابة الحزينة إلا متأخرة. كانت تصدح قبلها الأصوات في جنبات السوق، بحناجر تحفظ الشعر الملحون. وتحفظ أكثر قصائده الغزلية. الحبّ هو ما جعل شعراء البادية يبعثون به إلى قلوب العذارى أرسل إلى عيون صديقه محمد نظرة لخصت كثيرا من الحنين وأردف

والتنهيد يزاحم الكلمات الحب يا صديقي هو من جعلني أبعث بالحبيب إلى دار البقاء.

- دار البقاء؟ ماذا تعني يا سي تركي؟
- رحلت الحبيبة...بيدي رحلت لا بيد غيري
- لا أفهم يا سي تركي. أين رحلت حبيبتك؟

كانت الإجابة هي وقع خطوات تركي، وهي تلج قلب مدينة حاسي بحبح، إذ بدت أكثر سرعة واندفاعا نحو قلب المدينة، وكأن به يرجو الخروج منه ليلتحق بالجانب الجنوبي منه. ومعها تجاوبت خطوات الشاب محمد، وبعث في أعماقه جازما حديثا لنفسه كأن بالهرم كان يتناول إكسير الحياة، لا دواء محشوا بالمقويات لا يربو مفعولها مع هرمٍ مثله. ونسي محمد علّة صديقه وخيط قصته، وراح الرجلان يسيران في اندماج غريب وسط حالة الضجيج، وداخل مشهد الحركة الذي تفتعله أقدام الزائرين للسوق في هذا الخميس. ومع بروز وجوه السوق، التي تتفاوت من باعة صغار إلى زوار بسطاء مرورا بمن تعوّدوا على تلمس بركات السوق العتيق من جيوب المتسوقين، ليتغير مزاج الحديث من أيام تركي، التي ردمتها ذكريات عشيقته وفاتنته المؤلمة، إلى حاضر المدينة وشواغلها. ورمت بهما الخطوات وقد تواءمت بين الحاضر والماضي على يمين الطريق الوطني الذي يشق المدينة إلى نصفين شرقي وغربي، غير بعيد عن شارع البلدية المطلّة لافتته على الغرب، بخط كوفي يوحي بهوية المكان والزمان. فما كان إلا أن وجد الظلان نفسيهما أمام سيارات للنقل مصطفة من كل الأنواع والألوان وأغلبها من ماركة الهيلوكس. وكأن بعجلاتها ذات العشرين بوصة تنهش كل زاوية من زوايا الطريق الفرعي للبلدية.

- لم لا نذهب إلى السوق؟

بهذا السؤال استضاف تركي صديقه الشاب، قائلا من جديد:

- هناك سيجد الحديث حلاوته ومجراه الطبيعي...

أخفى محمد تـردّده مـن دخـول السـوق الشـعبي، ولا يعـرف لم تلـك الرهبة؟

ربما لأن عقله الباطن لا زال يحفظ تلـك الصـفعات المتتاليـة، التـي تلقاهـا أخوه، منذ سنوات بعد إن اشتكى إليه، أحد الأخوال سرقة تمت عـلى يديـه في وضح النهار وأمام مرأى صاحب البضاعة. قد تكـون الـذكرى السـيئة أو الخوف الطفولي...

استجاب الشاب لمضيفه الهرم، وعيونه حبلى بذكرى السـوق والشـقيق التي استفاقت على حين غرة. دخـلا سـويا مـن البـاب الشـمالي الأقـرب إلى ثكنة عسكرية، بنيت على أنقاض أخرى لم يبق من آثار عهدها الاستعماري إلا عرصة تحفظ تأريخـا، لا يستحضره إلا تـركي أو مـن عـاصره. مـع أولى الخطوات إلى السـوق، والـذي لا تفصـله عـن بـاقي المبـاني أو الطريـق أي جدار أو سياج، استشعر الرجلان أن هناك فاصلا وهميـا بـين هـذا الكيـان وباقي الصروح المحيطة. بمجـرد أن ولجـه محمـد أحـس بشـعور غريـب مشابه لإحساس التلميذ الـذي يـدخل إلى الصـف لأول مـرة. كـأن كـل مـا يحيط به غريب ومخيف. لم يستفق محمد من هالة المكـان إلا عـلى وقـع صوت بائع لعقّار يداوي السن والضرس، وبصوت جهوري كاد يشـق طبلـة أذن الشاب صدح قائلا:

- أرواح...قرّب يا مسكين. هنا دوا الضرسة.

لم يكد يصدق أن هذا الصوت الـذي اعتـاد سـماعه مـن أعـلى تلـه في المدينة، هو الآن أمامه، يتحسسه ويشاهد صاحبه، وكم هو مختلـف ذلـك الصوت القوي مع هيكل البائع الهزيل. لا بـد أنـه اسـتعان بمكبرٍ للصـوت من نوعٍ خاص، كي يدفع بتلك الأمـواج الصـوتية المميـزة إلى كـل الآذان. لم يكن هذا الطبيب الشـعبي النحيـل هـو الأوحـد، مـن يحمـل الميكروفـون

المزدان ببهجة السوق وبضاعته، فهناك آخرون غيرهم، يجدون لهم مكانا لإغراء المتسوقين، كي يشكّلوا - دون وعي- حلقة، تكاد تكتمل دائرتها سريعا، وهم وسطها من أمثال عازفي الربابة المشهورين، وقد جلسوا القرفصاء وسط جموع القادمين، ليرضوا شغفهم بحكايات الماضي البعيد على أنغام الآلة الشعبية.

وآخرين من الباعة، مصطفين الواحد بإزاء الآخر وبضاعتهم المختلفة تكاد تجعل اللبيب يحتار في طرق صفّها وعرضها.

كل هذه المشاهد دعت محمدا، بعد صمت طويل، وهو يرافق تركيا أن يسأله، مستيقنا أن كثيرا غيره قد ساءل به نفسه غير مرّة:

- كيف ينتظم هؤلاء الباعة؟ ويأخذون لأنفسهم مكانا ولا يحتاجون من يوجّههم أو يبعد عنهم شبح العراك خلال البحث عن مكان لعرض بضاعتهم؟

ليضيف من جديد، بعد خطوة وسط زحمة السير، وسط السوق:

- ألا يتعاركون لاختيار الحيّز الأفضل؟

- ذاك هو سحر سوق الخميس. لقد اتّفقوا أن يأخذ كلٌّ مكانه، بحسب أقدميته في السوق، وكبر تجارته فيه..

قطع عنهما الحديث، نداء بائع دواء الضرس مجددا:

من دوائي ... قل لألم الضرس وداعا

- هل أتيح لك تجريب تلك الأدوية يا سي تركي؟

كانت إشارة "لا" عبر سبابة تركي كافية للجواب.

أخذتهما الأقدام سريعا إلى عيسى حديث الخيمة - المقهى.

سحب تركي صديقه الشاب نحوه بهدوء هامسا في أذنه:

- دعك من التجارة والباعة، وادخل معي لتأخذ مشروب السوق الأول على حساب هرمٍ مثلي

- حاضر يا سي تركي. ولو أني تذوقته من قبل، قبل دخولي الأول هذا..

- أين؟

- وكيف يخفى عليك يا سي تركي؟ لقد كانت هناك مقهى غير بعيدة من السوق، وهي محاذية لدار البلدية.
- ولكنها لم تعمر طويلا.
وجدا لنفسيهما مكانا على الكرسي الجماعي، وختم محمد السجال قائلا:
- نعم لم تعمّر...ولكنها بنيت على أنقاض أخرى من وقت فرنسا...
تلك هي إذن مقهى سي بـن داود، حيـث التقـى أول مـرة بــ "علجـة". كانت ليلته البغدادية، المليئة بالنشوة والجـمال، وعـلى غـير تخطـيط منـه هي لحظة البدء مع امرأته الوحيدة.

ارتشف الرجلان من الحـار البحبحـي نفسـين، انبعثـت متعـتهما عـبر زفيري الرضا، وأغرى أصغرهما صديقه بتتمة الحديث، وهو يحمل الفنجان الشفاف، وبضع خيوط من الألفة تصّعّد نحو أعلى الخيمة:
- أتعرف يا صديقي؟ (وعيونه تجول كالمتيم عبر الفضـاء داخلهـا، ليعـود بصره كرّة أخرى إلى الكراسي الطويلة بشكلها الشعبي المتواضـع، والمهيمنـة على أرضيتها والأعمدة تحمل الخيمة مـن هنـا وهنـاك) كلـما دنـوت مـن هذه الخيمة إلا واقتربت من ذاكرتي صورتان..
علت وسط أجواء الخيمة المقهى حنحنة يتيمة انبعث كالشاة الدّرعاء مـن حنجرة القهوجي الكهل، بدا صداها من الضيفين بعيـد. وعلـت – بيـنهما- على شفتي النادل الشاب طلبات الزبائن وقد طغى عليها الشاي. أعـارهما محمد نظرة عين استكشـف عبرهـا الوجـوه، وعـاد سريعـا إلى خـيط تـركي الحكائي، واقترب أكثر كي يجرّه إلى قول المزيد:
- صورة للوالدة، وهي تصف كيف ودّع الأهل عمي سالم.
صمت قليلا، وقد غلبته زفرة حرّى:
- وصورة عربية. عربية يا صديقي حُفرت في كياني روحا وأنفاسا ودماء.
سبح تركي قليلا بعيونه نحو خطوات المتسوقين، خارج الخيمة المقهى، كأنه استراح من عبء الزمن، وعاد ببصره إلى الشاب:
- لا أخفيك (وقد سألتني) أن قبلتها ممزوجة بكل ما أتذوقه، إنها دافئة رغم اختلاسي لها كاختلاس السرور زمن الوباء. لم أشعر سـاعتها أننـي أمـام

جسد أنثى. لم يكن بوسع من كان في الخيام وصف تلك الرغبة الإنسانية التي أخذتنا وقد سرقت من الزمن ساعة. لم يكن من المعتاد يا صديقي أن تفيض الأنثى برغبتها في تلك الديار، ولا تقوى على الولوج إليها إلا بإذن ذكوري...

- أهي مغامرة يا سي تركي أن تحتضن جسدا مغريا؟

تغيّر وجه تركي، كأنه يستدرك:

- ليست عربية جسدا كما تعتقد يا فتى، بل هي روح لطالما اختالت بغنج على وجه هذه الأرض.. لم تك قبلاتها ترجمة لرغبة فحسب. لقد صارحتني وهي تتلهف إلى يقين الحب، وهي تُبعد ظلمة الشك عنها وعنّي: إن كان ولا بد لنبق سويا، فلتقتحم ما شئت من قلاع جسدك هذا أنت مالكه، وما أسواره إلا في حماك. كانت كل الحروف وقد طفت كأبيات الشعر على شفتيها الساحرتين، نغما مغريا يلهب كل ذرة مني.

وهو يتابع حديث صديقه، بدا محمد متذبذبا تائها شيئا ما، وقد علت على جبينه قطرات من عرقٍ، ربما مذاق فنجان "الحار" بعث أخيرا بمفعوله الحارق في شرايين الشاب، أو هو لهيب الشوق المصاحب لحكاية تركي، وقد أيقظت على ما يبدو مكامن الشاب.

- يا سي تركي، صارحني أكثر. هل أتيح لك أن تذوب في حقول الجسد؟

- جسدها...لا يعنيني...إنها لم تهدنيه يا صديقي، إنه ليس قربانا للوفاء.

كأن بمحمد يبحث مع كل كلمة يتفوه بها تركي، عن خيط يربط بها ذكريات الهرم، المملوءة بسحر الجسد ومتعة الروح بما يصبو إليه شاب مثله أو يحلم به. لم يكن من الصعب عليه أن يدع لسؤاله الحرية في الانطلاق، وهما في قلب سوق الخميس، يستمعان إلى ارتفاع أصوات الباعة والمتسوقين، من هنا وهناك. ويستحضران مع النبرات لهجات هذا الوطن المفجوع بالحرب في ماضيه، وبالكآبة فيما تبقى من عمره. أصوات بنوتات متباينة، تترجم هوس الجزائري بالأسواق الشعبية، وشغفهم بتبادل الحديث مع من يعرفون أو مع من يجهلون. فتارة تسمع:

- واش لخبار؟ يا خي لاباس؟

وتارة أخرى، تتهادى لكنة أمازيغية تبعث بالتحية نفسها:

- آزّو فلاك

وغير بعيد تعرف أن الذي يبعث السؤال لجاره، هو من حاسي بحبح لا شك:

- واش راها الدّعوة؟

والكل يشترك في الرّد قائلين:

- لا باس، الحمد لله

جملةٌ كلما خرجت من شفاه البدويين بنبرة عربية قحّة، يُخيّل للسامع أن همزتها تلك -ولطالما توّجت الألف الذي يسبق السين- قد اختفت واستعارت من مملكة النسيان صرحاً من همس. وكأنها كهؤلاء المعربين، تخفي المعاناة والألم والصمت. ذلك "الصمت" الذي بدا لمحمد وهو داخل الخيمة - المقهى، غير ذي جدوى. بل لكأن بحروفه الثلاثة نشازٌ في هذا الحيز العتيق من المدينة، وقد هيمنت عليه نبرات الأصوات العديدة، وموجاتٌ أثيرية من التّجار والروّاد المتزاحمين داخل السوق على مرأى من ظل خيمة محمد وتركي موجات أثيرية تنافس موجات الراديو الذي كانت البي بي سي "العربية" تفاخر بأصالته، عبر أول مذيعيها منذ ما يربو على الثمانين عاما، قبل أن تفاخر حاليا بأكثر من ذلك، عبر نوتة صوتية رباعية، كأنها بعدد اتجاهات الأرض، قد نسجتها الأصوات الذهبية، لكل من المسلمي وعرفان مرورا بالطّيب فمحمد الصالح[25]. نبرات صوتية من طينة عربية من شتى الأقطار من مصر والسودان والجزائر وفلسطين. فلسطين التي مرّت على أرضها كل الأجناس، حتى سالم لمس ترابها، ولم يكن يتصور يوما أنها ستقاسمه الآلام. إيهٍ على سالم وعلى ردح الزمن.

ردح من الزمن، لم يكن ليمنع سي تركي وهو قبالة محمد، وهما في الخيمة التي تواجه الشرق بفخر، ولا تحفل بساعات الغروب من استحضار "عربيته". بدت عربية فيما تبقى من ذاكرة تركي عارية أمام حقيقة الوجود. لا يسترها كما قال مدّاح السوق:

[25] - مذيعو البي بي سي عربية: محمود المسلمي/ عرفان عرب/ عمر الطيب/ محمد الصالح الصيد

- إلا برنس، لا يكاد يشبه فتنته إلا وشاح ولادة بنت المستكفي، وهي تغري بأبياتها الأندلسية شاعر قرطبة الأبدي ابن زيدون، القابع في فضاء أيبريا وهو يبعث بسيمفونية مفعمة بترانيم الحب، ومنسوجة بلحنها العشقي إلى حدود الزمن.

لم ير الجسد من قبل.

لم تلتهم نيران نفسه وهي في حضرة اللهفة هشيم الإغراء.

لم يحي على نغمات تخلق من السكون أبلغ الكلمات وأعذب الألحان.

رحلت أعماقه إلى دعةٍ غريبة، وطاف فؤاده حول عوالم سحرت كل أهداب عيونه البدوية. وصاحبته أنفاسها المتخمة باللهفة، والثملة بحبّه بلا سابق موعد.

لم يكن بمقدور الشاب محمد أن يبلل جفاف ريقه، وقد أخذت مشاهد يوم تركي/عربية البعيد بجوارحه. بدا له جسد الأنثى هو الآخر بعيدا، وكأن عربية هذا كيان آخر، وجنس يقترب من النّور. انكسر أفق انتظاره، وهو يتابع عبر أذن لطالما اهتزت لكعب مها ورنينه المغري على أبواب مستشفى حاسي بحبح. بدا له وصف تركي مزيجا من حبّ وشبق. ولكنه حبّ لجسد وحرقة لكيان غير مرئي. وتواصلت الحكاية:

- كان جسدها يبعث بالنّور، وعطافها تدفع نحو المكان والزمان بالشذى. وكل ذرة من جلدها المرهف النّاعم تبعث بالسحر. كأنها مبخرة لسحّار من قرون طيبة المصرية. لم أقو على منع راحتي الخشنة من مداعبة تلك الجنان، لم تحفظ ذاكرتي إلا جبروت جسدها الغض الفتي. أترى هذا القدّ المتخم بجبروت الرغبة قد يمنحني إكسير الحياة؟ أم هي أسطورة الحب؟ قدّها يتبعني أنى رحلت، وصورتها وهي مرمر حي، بترت من الطبيعة كل جمال، دون خدوش بشرية.

كبّل الصمت المكان وشفاه الرجلين، كأن بالأجيال تصمت معا، كي تعطي للواحق الحكاية، شيئا من الزمن المستعار من سنوات الخمسينيات:

- اختلجت أناملي وهي تقترب من جمال عربية، كأنها وهي تذوب فيها، قد أطاعت "نغاق" القطاة الأنثى، وهي تحتمي بالعقاب. وبدا الثغر خجولا يقترب من شفتيها، ويغريه رضابها المعطّر بلحن من ألحان العنبر ذلك الرابض في صدرها، كما كان مدفونا في سخاب Genièvre.

قطع محمد حديث تركي، وقد استشف أن الهرم لعبت به السوق أو كادت، فمن استحضار القطا التي يجهل حتى شكلها فما بال صوتها، ووصولا إلى الاسم اللاتيني الذي اقتحم خيمتهما البدوية فجأة:

- Geneviève ؟

- هي قصة طويلة يا صديقي. جونفياف هذه أول امرأة فرنسية عرفتها في حياتي...

- هي منافسة عربية إذن؟

- لم تكن ولن تكون... من خلال عين الفرنسية، عرفت عيون عربية

اطمأن محمد على نضارة رفيقه الثمانيني، بعد أن كان الفضول طريقه لمعرفة عربية. وما تزال رغبته في اكتشاف Geneviève.. ولكن الخيمة اكتظت، وآن لهما أن يتركا المكان لمتسوقين آخرين، قبل سماع إشارة المغادرة الدافئة من عيسى أو أحد غلمانه. أخرج تركي من محفظة النقود العتيقة، بضعة دنانير وسط حيرة محمد من لمسة الشيخ الهرم. وغادرا المكان وشيء من الغبار يتبع المارين، وهم يتوجهون بعد عناق السوق إلى قلب حاسي بحبح.

*

محطة العاصمة

"... أحبب من شئت فإنك مفارقه"
حديث شريف

ضجيج من هنا وهناك، رطوبة عالية بمحاذاة المحطة. والمسافرون من كل حدب وصوب تتعالى أصواتهم بلكنات فرنسية مختلفة، لا تستطيع في وسطها تمييز الأعراق العديدة التي تغلف شفاه كل واحد منهم. الكل مضطرب ويتحرك من حول المحطة، حتى ساعات هذا الأحد الصيفي، كأنها تودّع سالما، كما تودع بقايا نسمات الربيع. ومن حول المحطة باعة متجولون، يحملون السجائر وأنواع **المكسرات**، وشباب أقل سنا منهم ينادون:

- هنا موسيو...نيتوايي فو سوليي.[26]

فما يلبث أن يقترب مسنّ من أحد هؤلاء، مستجيبا لصوته **الفرنسي** ذي النبرة العاصمية، كي يضع بحرصٍ شديد حذاءه الجلدي الأسود على قطعة خشبية، أخرجها الفتى سريعا من صندوق عجائبه المملوء بالملمع. يطيع الزبون استضافة الفتي كي يجلس على كرسي التلميع. رغم تواضع الكرسي إلا أنه غُلّف بجلد ليّن قانٍ جذّاب. ما هي إلا لحظات من السحب جيئة وذهابا بأعلى الحذاء -كان الرجل خلالها يتمتع بسيجارته وبشمس العاصمة- وضربتين خفيفتين أو ثلاثة بفرشاة لينة من جهة الكعب، حتى يعود اللمعان لجلد الحذاء الأسود سيرته الأولى، ويعطى الزبون للشاب بعد حركة الوقوف، قطعة من السنتيم الفرنسي- اللامع كأتعاب ذهبية لتلك الأنامل الصغيرة.

[26] - هنا سيدي..نظّف حذاءك

يرقب سالم كل ذلك خلف زجاج إحدى القاطرات، رفقة ما تبقى من جند عرب.

لم يكن بوسعه الإصغاء إلى نداءات رابح المتكررة، وهو يشير إلى فتى بالكاد يخطو خطواته الغضة على الرصيف العاصمي، حتى عاجلته جملة آمرة من باسكال، الذي غاب عن مشهد الرحلة وعن لوحة المحطة، تلك التي تاهت في إطارها عيون سالم، وهو يراقب امتزاج ألوانها لأول مرة.

الجزائر العاصمة تأخذ العين وتأخذ صاحب العين بإغواء غريب، تبدو جذّابة وكل شيء فيها يغطيه سحر البياض الناصع: مبانيها، مركباتها لوحات محلاّتها المزدانة بكل أنواع الخطوط الفرنسية، وقد أبدعتها أنامل مدارس الكاليغراف. لم تتبق غير السماء كي تخطف من أرض العاصمة ذلك البساط الأبيض لتتوشح به. يكاد سالم يجزم أنه لم يتبق من هويتها الجزائرية إلا لونها الأبيض الصافي، المشابه لحليب أمها.

نزل الجند العرب، وهم بالكاد يسحبون أرجلهم فوق الرصيف المحاذي للسكك الحديدة، بعد ساعات من الجلوس، يكون تارة بشكل القرفصاء وتارة أخرى بمد الأرجل وقد أسندوا ظهورهم النحيفة على الجدران الحديدية للقاطرة.

وقف سالم بجانب رابح، وكلاهما يرقب المشهد.

بدت له محطة العاصمة اليوم -وربما في سائر أيامها- مزدحمة وتوحي لداخلها أن شيئا كبيرا من الاضطراب يسودها، ويسود شيئا من أحيائها العتيقة، ويساورها كثير من القلق في شوارعها الأوربية.

وجد القادمون من الجنوب، أشباههم من عرب آخرين، ينتظرون على الرصيف. زادت أعدادهم وصفوفهم، واتّسع الصمت. واختصرت الأوامر عبر الأناشيد العسكرية كل المشهد.

اصـطف الجنـد وعـددهم يقـترب مـن الخمسـين، يسـبقهم القـادة. والصديقان العربيان برزا خلـف المشـهد، والوجـل يأخـذ بـأعرفهما باللغـة وأهلها. أما سالم فلم يعـد يشـغله غـير الحركـة الغربيـة، التـي تبعتـه مـع دخوله إلى العاصمة البيضاء. وها هو مصيره العسكري معلـق بيـد إحـدى الوثائق، التي يديرها أحد القـادة الجـدد، بعـد أن غـادر باسـكال المشـهد، وكأنه جان.

تلك الحركة الغريبة- مع نسمات الصيف- تكشّـفت لسـالم عـبر جملـة من شفتي رابح التلي، ستتبعه طوال ما تبقى له من رحلته:

- يبدو أن الذي توسط لك، سيرسلك يا صديقي إلى أقصى نقطة في أوربا
- لم أفهم ماذا تقصد؟
- ألم تقل إن هناك توصيه من قائدك، ليرسلك إلى منطقة بعيدا عن العرب؟
- بلى
- ستلتحق بالشمال..يا صديقي..ولا تنس أن تعطي بطاقتك بعد المنـاداة عليك.

صمت كل شيء من حول الرّجلين، وأرسل القطار من بعيد صفارة ضـعيفة تترجم الغياب، قبل أن يجيب سالم:

- يا خويا رابح...في الشمال أو في الجنوب المهم أن أبتعد من هنا
- سـتبتعد , وسـأبتعد أنـا أيضـا...أمـا دريـت أن هتلـر، سيهضـم فرنسـا ويهضمنا معها؟
- كيف ذلك ؟ لا أفهم؟

أخرج رابح التلي بهدوء من جيبه ورقة من صحيفة العاصمة الأشهر، وبعد أن فكّ شفرتها وهي مطوية، قال لسالم مترجما:

"الأسطول الألماني

هل سينقل المعركة؟"

إيكو دالجي/ الثلاثاء، الـ 02 من أفريل 1940

وختم حديثه لسالم:

- الرحلة ستكون طويلة، يا سي سالم
- طويلة أم قصيرة...أنا مدرك أن العمر قصير.
- صدقت.

وبعث رابح ببصره مطمئنا إلى السماء، وهو يتلو الشهادتين في سرّه، وقد مسح على وجهه خاتما دعاءً لم يسمعه سواه.

*

استقرّت الفيالق العسكرية بأعداد هائلة، تنتظر بقلق وصرامة أوامر المغادرة. نحو حرب الإنزال. إنها الحملة الفرنسية نحو الشمال الأوربي. ستنطلق المعركة..

وجد كل من سالم ورابح نفسيهما رفقاء غرباء، متوجهين رفقة وجوه تختلف عنهما، وألسنة بعيدة عن لغتهما. لم يحتاجا إلى كبير نقاش مع قائد الفيلق الذي تولى أمرهما، واكتفى بسؤالين لكل منهما، استشف خلاله رابح أن مدة التكوين الأولي لكل منهما تفي بالغرض العسكري. وتكفيهما كي يستقلا رفقة الجنود الفرنسيين والأسبان السفينة الحربية الرابضة غير بعيد عنهما.

بالرغم من رهبة سالم من البحر وجبروته، إلا أن سروره كان كبيرا. كيف لا وبرفقته شخص من أبناء جلده، سيكون له لا ريب سندا في ظروف لا يعرف كنهها ولا نهايتها. لقد استجاب الله لدعاء والدته، وهي تودّعه قرب تلك الخيام التي ما تزال أنفاسها تتبعه من حاسي بحبح إلى ميناء العاصمة:

- ربي يجيب لك أولاد لحلال...

بدا مطمئنا، هادئا ولم تبهره تلك الصفوف العسكرية المخزون وسطها.

قبل التحاق الجنديين العربيين بالثكنة، دامت الترتيبات لأكثر من ساعتين. حينها لم يسأل سالم نفسه عن مصير رفاقه، القادمين معه من محطة المدية مرورا بالبليدة. وكأن طبول الحرب لعبت بالمصائر فأنسته الأحداث القريبة. ولكن ذاكرته وسط النسيان القهري، تستحضر صورة

صديقه على لغواطي، وتزداد وضوحا مع رؤية رابح التلي. بات علي ورابح عملة سالم الذهبية، التي لا تعرف غير صورة واحدة في كلتا وجهيها.

راحت الشمس إلى فراش أفق الغروب، وأنست نسمات البحر المحتضنة للثكنة العسكرية، سالما ورابحا تعبهما. و بسرعة الرعاة دخلا إلى البنيان الفرنسي المستضيف لهما، وللواء الفيلق الأجنبي الـ 13.

في المهجع الطويل، لم يكن سرير رابح ببعيد عن صديقه البدوي. التقى العربيان بعيد وجبة العشاء الدسمة، وأخذ سالم صورة مجملة عمّا ينتظره ورفيقه في الأيام القادمة، وما تراها وجهتهما.

- شوف يا سي سالم. نحن الآن ضمن فرقة تأسست في المغرب..
- المغرب؟ وما دخلنا والمغرب..
- قلت تأسست هناك...أما مقرها فهو سيدي بلعباس. وهؤلاء الذين تراهم بيننا هم من مدن الجزائر الخمس: العاصمة الأغواط، ومدينتك الجلفة وضواحيها، والمدية وبلاد القبائل.
- ولكن هناك أجانب؟
- هناك العديد من الأسبان والفرنسيين لا غير.

عجّل القائد الفرنسي بإنهاء كل الأحاديث الجانبية للجنود، وأطفأ النور سريعا، وختم بصوت هزّ المهجع بمن فيه:

- إلى النوم...لا داعي لتذكيركم بالنهوض قبيل الرابعة.

غط الجنود في نوم مميت. ولا صوت يعلو في فضاءات المكان الرطب، غير شخير من هنا أو هناك، أو بعض النشاز، مبعثه أضغاث أحلام تلاحق المتعبين. وما هي إلا دقائق حتى أمست الصالة الكبيرة كمقبرة للأجساد الشابة، من جبروت التّعب.

مرّت ساعات الليل سريعا، كما مرت لحظات الغروب.

أيقظت صفّارات الصبح تلك الجثث، وبسرعة أقرب إلى حركة الجان وجد كلٌّ مكانه بالقرب من السرير، وقد رُتّبت الأفرشة وحزمت الأمتعة على وقع أقدام القائد، الوافر الطول. وفوق كل حقيبة بلونها الأخضر الحشيشي لباس عسكري وملابس داخلية بمقياس موحد أقرب إلى 43.

لم تمض غير دقائق قليلة تكاد تحسب بأصابع اليد الواحدة، حتى اصطف المئات من الجند في الساحة الرئيسية بلباسهم الموحد، الأقرب إلى لون الجند المظليّين النخبة، لونٌ يعطي الانطباع بأنك أمام خصم قوي وصلب. بدا كل من سالم ورابح وكأنهما أوربيان لحظة ارتدائهما لبزتهما الفرنسية، وقد بدت بشرة كل منهما نضرة وبها مسحة من الطراوة. كان لعشاء الأمس بالتأكيد أكبر التأثير على جسديهما اليافعين.

لم تمهلهما الأوامر كبير وقت حتى حملت الأجساد إلى السفينة العسكرية، وقد خلت من كل شيء إلا من الجند المختلفة الأعراق والأديان. حملهم البحر سريعا، ومن الصحراء إلى البحر وجد سالم نفسه دون إذن مسبق، ودون أن يودّع الأرض. رغم أنه لا يدرك أن هذا البحر الشاسع يفصل قارتين مختلفتين وأمما مختلفة، إلا أنه أدرك سريعا أنه ليس الوحيد من يلعب به القدر لعبته، وأنه وكل الجند المجهولي الهوية بالنسبة إليه يبحثون عن المجهول. فهم وإن كانوا وقودا للحرب التي تنتظرهم في زمن غير زمنهم ومكان غير مكانهم، إلا أنهم يبيعون حياتهم لملايين الحيوات الأخرى. قد يموتون من أجل أن تحيا أنفس أخرى، لا تؤمن بدينهم ولا تتحدّث لغتهم، ولا تعرف حتى أسماءهم.

- اصعد يا سي سالم...
- إلى أين نحن سائرون يا سي رابح
- نحو فرنسا..
- فرنسا...سنودّع الوطن إذن

يبتسم رابح ويجيب:

- وطنك الآن هو هذه السفينة يا سي سالم.

صعد سالم دون أن يفهم إشارة رابح إلى الوطن أو السفينة. وكيف له أن يفهم ما يقصد صديقه، وقد تربّى أن وطنه هو تلك الخيمة التي تركها وراءه في حاسي بحبح، والتي ما زال صوت ابن أخيه تركي يرن في أذنيه بنداءاته المعهودة، وهو يطارد خرافه مع المساء.

بعد أن ساد الصمت لبرهةٍ في العاصمة الجزائرية، أرسلت السفينة صفيرها، والقبطان يصيح بلكنة فرنسية جافة:

إلى بريست[27]

مضت السفينة اللاتينية محملة بأرواح الجند العرب، وهي تمخر عباب البحر المتوسط، تصبو إلى الوصول إلى إقليم المحيط الأطلسي سريعا. وإذ برياح الأيبيريين الممزوجة بلفحة من الخريف باردة، تغري أهل الخيام ليستحضروا -مع كثير من المرارة- لحن الأجداد القادم صداه من الأندلس المفقود.

لم ترسخ في ذهن سالم، بعد أن افترسه دوار البحر لأكثر من مرة، إلا صورة اختلاط السماء بالبحر وقد فصلهما الأفق الأوربي. لم ينبس لصديقه رابح ببنت شفة، ولم يبعث له كالعادة بأسئلته، طوال اليوم الأول والثاني وهي مدة الإبحار من مياه الجزائر إلى حدود مضيق جبل طارق.

آثر مع الرحلة البحرية الوحدة، والانزواء رفقة ما يدّخره من أيام حاسي بحبح، التي جعلته يوقظ عادة عرف بها في حقول تلك البوادي الضامرة. حينما كان ينام ساعة الظهيرة ليطل على القمر في ساعات الدّجى.

[27] - ميناء في الشمال فرنسي مطل على الأطلسي. بدأت منه قوات التحالف حربها البحرية ضد النازيين في النرويج

وها هو الآن يستسلم لسهاد الليل الأوربي، يرقب سماءها الموغلة في الغموض كغموض الأطلسي وما يحمل من أسرار العابرين للقارات. ولولا أن سربا خجولا من السمان المغرّد حام فوق هامته العربية، لأيقن أن الحياة أوشكت على ظهر هذه السفينة على الفناء. لقد بعثت به أجنحة هذه الطيور الأوربية المغردة - بلحن الهجرة الجنوبية في ظلمة الليل- إلى مضارب أسراب القطا الوجلة، وهي تختلس الصمت لتحطّ على تخوم مدينته المتربعة على بعض الخيام، المستسلمة وأعمدتها النّاشفة للرياح الموسمية.

فاجأه صوت رابح بالسؤال، وهو يقترب هامسا من فراشه.

- إنك تطيل السهر يا سالم
- إن الفجر يكاد يلامس سفينتنا، فأي سهر؟

بدا الفجر فعلا يبعث خيوطه في حياء، نحو الأجساد الميّتة من التعب. وانطلق العربيان إلى عادتهما البيولوجية قبل أن توقظهما ساعة الطابور العسكري. وراحت السفينة العسكرية تذوب فيما تبقى من أمواج الأطلسي، راجية أن تفتح يابسة النورمندي ذرايعها للوافدين، نحو الحرب الضروس.

حاسي بحبح

كم منزل في الأرض يألفه الفتي
وحنينه أبدا لأول منزل
أبو تمام

استفاق تركي من حلم الصبا، تطارده صورة اقتراب شمس الخيام من مغيبها وهو يهش على أغنام الدّيار بعصا عمه سالم. كانت أيام...

خرج بعدها مثقلا وبالكاد ارتدى قندورته البيضاء، التي توجتها عمامته النّاصعة هي الأخرى، وقد ستر الكل برنس خفيف وبري اللون.

بعد تلك الأيام الحبلى بالتّعب. خرج تركي وقد بدأ يسري في عروقه الوهن والضعف، لم يكن ليشعر به قبل سقوطه ذاك. خرج وقد ترك خلفه في بيت أخيه سالم عديد الذكريات، لأن بيت سالم العامر بالأولاد والوداعة يُلح على تركي باستحضار كل الماضي بدءا من الأربعينيات غادر العم مع الرّاحلين إلى القارة العجوز، ووصولا إلى الستينيات. سنوات الحرية التي غنمها وطنه الموجوع. أحس أنه دخل إلى الوطن بعد خروج الفرنسيين وهي تجرّ جحافل "الحركا" والمتفرنسين واليهود، في رحلة جديدة عنوانها إشكاليات اللسان والهوية.

وهو في أرذل العمر، اختبر قدميه اللتين كانتا غير قادرتين على الولوج به إلى الطريق العام، "طريق الحرية" كي يستنطق عبثا أحياء حاسي بحبح القديمة. مضى بتلك الأقدام نحو المجهول كأنه يستكشف المدينة من جديد. مدينة تحفظ أمثال محمد.

لولا رعاية الشاب محمد له خلال مرحلة الاستشفاء ودوام بقائه إلى جانبه، لما وُهبت له هذه الساعات. تمكن الشاب عبر ذلك من امتلاك مساحة من قلب تركي، المليء بخزائن الماضي. لم يعر لحديث أخيه اهتماما حين قال له بشيء من العتاب:

- كلاكما مختلف عن الآخر. أنت من جيل وهو من جيلٍ مختلفٍ تماما

لم يجبه تركي خشية أن يختلفا مرة أخرى، وهما بالكاد عادا سيرتهما الأولى من الصفاء، بعد النقاش القديم الجديد، الذي يستهلّه سالم من حينٍ إلى حين، ولا عنوان له إلا الزواج، ونسيان عربية.

الزواج عند تركي، تماما كعربية. هو شغف ولكنه مضى مع الرّاحلين. لقد دفنه كما دفن القايد كريمته.

لم يكن بوسعه حينذاك أن يقف على طللها ولا البكاء خلسة على ظلّه الضامر، وأمرّ من ذلك أن لا أحدا يعرف أين دفنت. أخفى القايد عن الجميع، تلك الدمنة، وكأنه لا يمحو عارا فحسب، بل يزيل حقبة من الزمن. حقبة لا يملكها ولا تملكه. لم يكن بوسع تركي الشاب أن يزور تربتها فحسب، بل أُكره على منفى آخر، غير منفى الطغيان والاستعمار، والسجن المفتوح على سماء حاسي بحبح والوطن الكبير. لم يتح له وهو في مقتبل العمر أن يحفل بالسوق، ولا مشهد الوافدين إليه، آناء فترة المنفى. كان السوق يذكره ولا زال بتلك الموءودة. كان موعدا أسبوعيا مع الحبيب. وبعد قرابة العام، مع موت القايد فقط، أتيح له الرجوع من جديد إلى حاسي بحبح، ولو أتيح له لسان شاعرٍ لترنّم هو الآخر بالعودة من المنفى المرّ. ولكن نغما آخر يطارده:

- لا تنسانا يا تركي بالدّعاء
- بل أنت من يدعو لي، أيها الشيخ الطّيب..
- ربي يحفظك..ولا تنس أن تحفظ هذه "الصرّة"، أمانتي عندك.

مع صرّة الشيخ، بقيت الجمل الثلاث ترنّ في ذاكرة تركي، واختصرت عام منفاه الذي قاسمه في جبال بوكحيل مع الشيخ الوقور سي بلكبير ورغم ذلك يرغب في تذّكر الوحدة والجوع والخوف في كل ليلة في عامه ذاك.

مضى إلى الآن من عمر تركي غير قليل، وها هو يقترب إلى المصير البشري المحتوم. أما سوق الخميس فقد بقي شابا نضرا، فتيا مشتعلا بالحياة، كأنه ونهر النيل يشتركان في الخلود.

لم تعد هناك متعة تربطه بالحياة غير هذا السوق، ولم يعد يربطه بخيط وجوده الهزيل إلا الشغف بما يحيط بالسوق الأسبوعي. مع كل خميس تولد تجربة جديدة، تنضاف إلى رصيد تركي، الذي لم يعد يعنيه منه إلا خطوات أولئك الداخلين إلى خيام السوق، بين بضائعهم وأصوات باعتهم، الممزوجة بأنواع الأيْمان الصادقة والكاذبة. أصوات كأنها تجمع بين النقيضين، النار والماء، بين المادة والعاطفة. كل خطوة كان يخطوها تترجم ثانية من العمر، تنقضي وتخلّف تجربة في أعماقه.

سارت به الخُطى وهي تموج بجسده على المهاد الجاف لحاسي بحبح، ويأخذه البصر المتعب هنا وهناك، ومن حوله يرنو إلى جدران المدينة، إلى حي المحطة الباعث بأسئلة التاريخ. لم يكن ليرهقه وسط هذا المشهد، إلا ما سمعه من شائعات تهادت نشازا إلى مسمعه، بأن آخر صرحٍ عريقٍ ستهدّمه السلطات، بحجة قدمه وتكاليف الترميم العالية. سيزيلونَ محطةَ حاسي بحبح، المرتبطة بذاكرته وبذاكرة مدينة بأسرها.

من خلالها، كم راقب الغروب في مساءات طفولته. ولكنه اليوم أمام شمس أخرى غير تلك التي عرفها في الزمن الجميل، لم تعد تستتر خلف المحطة، أمست متبرجة إلى حدّ الصراخ. كأنها نزعت عنها ثوب الخيام. لقد بدت شمس الخميس، شاحبة، باكية شاكية، وهي تودّع سماء المحطة، وإذ بضوئها خافت، وبأشعتها تخبو وتنحصر.

رغم الصخب المحيط به، ينتقل تركي فوق طريق حاسي بحبح صامتا ويبعث في أحايين قليلة سلاما، كان قد ألفه من صباه نحو عابر سبيل أو إلى شخصٍ يعرفه. ولم يتوقع أبدا أن يناديه شخصٌ ما – بدا في ريعان الشباب- باسمه "الحاف"، دون كلمة "سي" الموروثة عن السادة، من أمثال القايد، الذي يطارده كالشبح في كل حين:

- تركي؟..انتظر..

لم تكن ذاكرة تركي الصوتية تحفظ بصمات من ينادونه، بل كانت تحفظ صورهم فحسب، له ذاكرة فوتوغرافية لا صوت فيها. ليضيف الشاب متحمسا:

- ألم تعرفني يا "سي" تركي؟

- بلى. بلى. ولكنك تعرف يا فتى أن ذاكرة هرمٍ مثل حالي، لا تحفظ غير الماضي البعيد...

- أنا عمر أظنك تذكرني، صديق محمّد (وكأنه يمحو إحراج النسيان) ...هيا أعطيك فنجان قهوة معي..

لم يعتد تركي على مقاهي المدينة، فمثله لا تغريه غير مقهى سوق الخميس. تردد للحظة في قبول استضافة الشاب، ولكن شيئا ما بداخله دعاه للقبول.

- الله يحفظك يا محمد...بل يا عمر

واعتذر من الشاب عن الخلط بين الاسمين، بابتسامة فيها نغمة من: ههه

- هيا اقترب (أنا أو محمد كلانا واحد)، أمامنا قهوة بلعدل لنغرف منها مشروبا ساخناَ قبل أن تغلق أبوابها

- تغلق أبوابها؟

- نعم سمعت أنها ستكون امتدادا للصيدلية، الملاصقة لها

- يبدو أن عدد المقاهي والصيدليات متقارب في هذا الزمن...

- صدقت يا تركي.

دخل الرجلان إلى المقهى، واختلاف خطوات الجيلين بارزة للعيان. أخذ عمر سريعا طاولة بالقرب من باب المقهى، ومقابلة للعيون المعتادة في المقهى. وهي المتفحصة دوما لخطوات الداخلين والخارجين، كتفحصها لعلب البن والشاي، المحمولة إلى المقهى مع ساعات الفجر الأولى.

نادى عمر على النادل بهدوء:

- حضر لنا شايا ...

والتفت إلى ضيفه:

- في المقهى شاي لا يضاهى يا سي تركي...أتريد أن أطلب واحدا؟

- أريد قهوة، يا وليدي.

أشار علاوة، وهو المشرف على تحضير أطيب القهوة في بلعدل، عبر أنامله المحترفة، إلى النادل الشاب كي يحمل فناجين الضحى إلى الضيفين. ولكن مع مغادرة النادل السريعة إلى زبائن خارج المقهى، حمل علاوة بنفسه الفنجانين، بعد أن خرج من الجانب الداخلي المقابل للمترددين على طاولات بلعدل البنية.

لم يكن علاوة ممن يحبّون كثرة الحديث، تماما كما هي حال تركي، رغم سطوة مهنته التي جعلت منه شخصية معروفة وسط رواد المقهى من أهل مدينة حاسي بحبح، وعبر كل شبر من القطر الجزائري، ولكن سؤالا من عمر استفزه، وبعث به من تقديم فنجاني القهوة والشاي إلى الدنو من تركي:

- أعط لعمّك سي تركي قهوتك الطيبة يا علاوة..

- سوف أعطيه القهوة، وسكرية تزيد حلاوة البن، ومعهما فوق ذلك قبلة على رأس أبينا الضيف سي تركي...

سُرّ تركي من لمسة الاحترام التي أبداها هذا الشاب الآخر. ودفعه الإعجاب سريعا إلى سؤاله:

- يرحم والديك يا سي...؟

- علاوة يا لحاج...اسمي علي إذا حبّيت..

وانتقل ببصره حاملا ابتسامة بدت مألوفة نحو عمر، ليعود به سريعا إلى تركي:

- وسي عمر من أحبّائي، وهو جار وصديق الدراسة

مع استحضار الدراسة، ولجت سيدة إلى المقهى، وقد توجهت سريعا إلى تركي، وكأن وقاره أغراها على طلب المساعدة:

- هل تستطيع أن تملأ هذا الشيك. لا أعرف الكتابة يا لحاج..

لم ينبس الشيخ الهرم ببنت شفة، وإذ به وهو يطيع أمر المرأة يأخذ الشيك ليضعه على الطاولة، وقد أشاح ببصره يمنة ويسرة، باحثا وسط الجالسين القلائل عمّن لديه قلم للكتابة. لم تمهله المرأة كبير وقت حتى ناولته قلما جافا من نوع بيك، وكأنها أعدت العدة.

- كم؟

- هو موجود على ظهر الشيك يا لحاج..

بقي عمر يراقب المشهد، وقد أغراه ارتشاف الشاي الساخن. أما علاوة فقد استغل دخول المرأة للعودة إلى تحضير قهوته. قلب تركي الشيك وقد حدّق جيدا، مُبعدا الشيك بعدها، قائلا:

- ثلاثة آلاف دينار...؟

- أنعم.

بعد ثوانٍ من الصمت والكتابة، حمل تركي الشيك من على الطاولة، ووضعه بين أنملي إصبعيه السبابة والوسطى، وأعطاه للمرأة:

- خذي قلمك ولا تنسي أن تمضي هنا (مشيرا إلى أسفل الشيك)

- أكيد وهي تبتسم خلف حايكها البالي، وكيف آخذ المنحة الشهرية دونها؟

خرجت المرأة، وتركت "تركي" يحاول أن يغترف من القهوة رشفة افتتاح. عاجله عمر مع إحساس بالإعجاب:

- لك خط جميل يا سي تركي. لم أكن أعرف أنك مثقف ..وتكتب.

- الله يحفظك يا وليدي. ربما خطي جميل ولكنني لست مثقفا، ههه.. هذه بقايا من سنوات الابتدائي..

- الابتدائي فقط؟ أتعرف أنني لحد الساعة أخطئ في كتابة الشيك. وباللغة العربية. فما بالك بالفرنسية.. ومعي شهادة الليسانس في الشبه الطبي..

- لقد تعلّمت على يد أهل اللغة الفرنسية. فجيلي مختلف تماما عن جيلكم. دخلت المدرسة في 1930..

فتح الشاب فمه على حدود المقهى مندهشا:

- ألف وتسع مائة وثلاثين؟

- أنعم إيه.

- هذا أكثر من ثمانين سنة..

- نعم.

- ألم تتلق صعوبة (وأنت العربي) في تلقي الفرنسية في سن مبكرة؟

- يا وليدي، لم يكن المدرّس الفرنسي يشعرنا أننا أجانب. لا زلت أذكر دخوله الصف وأول تحية يهديها إلينا، وقد كنا في صفّ يعد فيه التلاميذ على أصابع اليد الواحدة.

من جديد، أعادته أسئلة الشباب إلى ماضيه. انتقل سريعا من مقهى بلعدل في 2015 إلى الموسم الدراسي 1932/31، حينما تهادت إلى أذنيه الصغيرتين وهو يقف وحيدا بالقرب من المحطة، التي ستنبري لها معاول عمّال البلدية، علّهم يعينوا الموت على دفنها سريعا. كانت المحطة تبدو لتركي كأنها تناطح عنان السماء. كانت زرقتها تلك تُشعره بالألفة والسعة على عكس زرقة عيني السيد "بيران" Perain ، اللتين رآهما تركي لأول مرة بعد نزوله مباشرة من القطار.

كان ذلك قبل التحاقه بصفوف الدراسة. مع مساء أحد أيام الخميس استقبلت المدينة المدرّس Perain الباريسي، لم يكن الصيف يحمل كثيرا من المتاع، فحقيبة الظهر الصغيرة تركها في عهدة من كان في استقباله من الجند. وقف وحيدا على ناصية المحطة، حاملا محفظته الجلدية القانية. ينظر إلى كل شيء يدب حوله، يرقب المكان ويمسح بعينه الفرنسية تخوم هذه البادية العربية، التي تستضيف المحطة ومدرسته، الماكثة هناك بصفيها المهيمنين على القفار. خطا نحو الأرض العربية بخطى هادئة واضعا سترته السوداء ذات الخيوط البيضاء الرقيقة على ذراعه اليسرى وبالذراع الأخرى حمل محفظته الممتلئة.

تتبعته عيون تركي، وراحت أقدامه الحافية تقتفي أثر الأقدام الفرنسية. بعد أن قطع الطريق المغطى بإسفلت صلب، وجد Perain نفسه أمام سيدة الكنيسة Geneviève. تبادل الفرنسيان التحيات المعروفة والابتسامات الضرورية لمثل هذه اللقاءات. ولم يكن بمقدور تركي وهو يرقب وقوفهما أن يسمع تحاورها الذي تواصل داخل الدّير.

في أول "اثنين" مختلف في حياة تركي الصغير. لم تعلق خلاله في ذاكرته غير خطى القديسة، وهي تقوده شفقة إلى مدرسة حاسي بحبح الوحيدة كي تقف به على عتبة أول صف على يمين سقيفة تفصل المدخل عن باقي المدرسة الصغيرة، قائلا للمدرّس الجديد:

- Turkie Ben Mohamed

مع دهشة المدرّس المصحوبة بابتسامة فرنسية غريبة، أضافت Geneviève وهي تحسب رؤوس التلاميذ القليلين:

- C'est votre dixième élève

لم يكن لتركي نسيان هذه الجملة المفتاحية طوال حياته المديدة، إذ ولجت به إلى عالم الحروف والكلمات. كانت اللغة الفرنسية وحروفها التسعة والعشرون، ريشٌ لأجنحة القطا، التي تطير عبرها –مثله- إلى أفق الحب والحياة. فبها وجد شفرة اللقاء بعربية. وقد التحقت، لسنتين بعده إلى الصفوف الدراسية. قدّر له بعدها أن يتابع كل خطواتها بعد الخروج

من الصفوف التي غلبت عليها نبرات الذكور الصوتية. سنوات ست عاش فيها تركي حياته الابتدائية، متسائلا عن سر الفرنسية وعن روعة مقطوعات دو فيني، وهو غو، ولامارتين. ولأكثر من نصفها، طاردته في عمره البكر عربية.

عرف عربية، عندما وعى تلك الجملة المفتاحية. كأن عربية مفتاح عقله وقلبه. ولولا آيات الصبح، التي يتنقل إليها بخطى الطفولة بالقرب من المصلى الوحيد، ليحفظها من شفاه الشيخ، لكانت لفظة الـ عربية مجرد ذكرى في عالم النسيان.

كان تركي من القلائل الذين أتيح لهم إتقان اللسانين العربي والفرنسي في سن باكرة، وإن مالت الكفة إلى الفرنسية بسبب كثافة برنامجها اليومي. ثلاثون ساعة لتدريس الفرنسية مقابل عشر ساعات في الأسبوع للعربية.

*

- يا راجل راني نحدّث فيك! وقلت لك نتلاقاو في قهوة السوق..وأنت تقولي قهوة "La gare"

صدح صوت من داخل المقهى، أيقظ كل النائمين في عوالمهم ليبعثوا ببصرهم إلى عجوزين، لم يكن بمقدور أحد غير تركي تمييزهما. لم يكن عسيرا على العجوز وهو يقترب ببصره نحو تركي وعمر أن يبعث بسلام فيه كثير من الألفة:

- أهلا ... أهلا

ترحاب جعل تركي يسلم على الرجل بحرارة قائلا:

- يا سي جلول راك ما زلت حي؟

- رانا حيين وصابرين

نهض الشاب عمر وقبّل رأس جلول، مما جعل تركي يسأله بذكاء، وهو يوجّه الحديث إلى تربه:

- راك تشوف يا سي جلول؟ الشباب مطيعون...

أجاب عمر سريعا:

- للعلم يا سي تركي، هذا الذي أمامك هو خالي..

جلس جلول بالقرب من الجيلين على كرسي هرمٍ مثله قائلا:

- لولا المشاغل لجلست معك طويلا يا سي تـركي. ولكـن أخـبراني أولا، مـا الذي جمع الشامي باليمني؟

قبل أن يجيب عمر، والتردّد يغلبه. ختم تركي الجلسة باذلا الجهد للوقـوف قائلا:

- تلك قصة طويلة. قد يرويها لك ابن أختك..

عاد تركي أدراجه إلى دياره، بعد أن عرّج كما اعتاد نهايـة كـل أسـبوع على كشك قلب المدينة، الذي لم يتبق غيره مما يحمل مـن رائحـة الطـوب والقرميد في حاسي بحـبح. مـع اقتنائـه للعـدد الأسـبوعي المميـز لجريدتـه المفضلة "Le quotidien d'Oran"[28]، يبحث مع كل حـرف مـن صـفحاتها التاريخية، عما يشبع حنينه إلى كل السـنوات الخـوالي، ويلـتقط منهـا مـن حـين إلى حـين إشـارات عـن الـرّاحلين، مـن خـلال شـهادات عـثرت عليهـا الجريدة لمن شاركوا فرنسا حروبها عبر أصقاع العالم العديدة.

تعيده صفحاتها المزدانة بأسلوب فرنسي سلس، إلى أعـداد قديمـة مـن "صدى الجزائر" ومثيلاتها. لـه وللمدينـة ذكريـات مـع الجرائـد. ولا زالـت تشهد ذاكرته على أول عدد من جريدة "صـدى الجزائـر" تصـل إلى حـاسي بحبح. وصلت حينذاك عشر نسـخٍ إلى رفّ الكشـك "قلـب المدينـة"، تسـع منهـا محفوظـة لمـن كـانوا أصـحاب المناصـب الإداريـة، وواحـدة أهـداها مصطفى الكومارسون، للبدوي النبيه.

مرارة ضياع تلك النسخة والكثير من صور الدراسة والطفولة، لا تقـل عن مرارة ذكرى "عربية"، التي استحضرها بمجرد رؤية الشاب عمر. مـع نبش قبر العمر كل صباح ، كان كل ما ضاع من تركي أهـون ثمنـا. فـلا شيء الآن أغلى عنده مـن ضـياع سـنين العمـر الغاليـة، بعـدما تقاذفتهـا أمـواج الدّهر بين ذكرى وأمان لوّنها حبّ عربيـة، وسـجنتها رتابـة الحيـاة. كانـت

[28] - جريدة جهوية (للغرب الجزائري)، لا زالت لحد الآن تصدر في مدينة وهران، ويكتب فيها كبار الصحفيين.

تارة بين رعي أغنام الديار قرب الخيام، وتارة أخرى بين يدي تجارة السوق في حاسي بحبح. والأهم أن هناك لحدا يرقب الأجساد، منه غير بعيد...

مع مرور تركي على وسط البلد في طريق العودة، لمح عمر خطوات الهرم وهو يتأبط الجريدة اللاتينية.

*

مع تساؤله عن سرّ هذا الشيخ، وجد نفسه سريعا في سقيفة الحي وأمامه على بعد أمتار باب بيته الخشبي. باب حاول مرارا إقناع والدته بتغييره، واستبداله بآخر حديدي مخافة السطو والسرقة. لكن الوالدة أصرت ولا تزال على الاحتفاظ به، وحجتها في ذلك تبدو أقرب إلى أحاديث صديقه الهرم تركي:

حتى خلال سنوات الدماء والدمار **العشر**، التي أحرقت من **أخضر** الجزائريين ويابسه أكثر من مئة ألف نفس، لم تكن لتثنيها عن تبديل البوابة الخشبية المليئة بالشقوق، وكأن كل خدشٍ مغروس يخبر بحادثة من الحوادث العديدة. راح إصرار عمر بكرها وبكر أبيه -وسط بنات ثلاث- يحلّق في فراغ هذه المدينة الغريبة.

دلف من العتبة، وأدخل مفتاح الباب القديم، ومع أول دورة له، باغته من قلب الحوش صوت والدته ذهبية، وهي تدعو على إحدى شقيقاته بلومٍ لم يعتده:

- ...ربّي إن شاء الله يديك كيما ادا خالتك عربية

مع دخول عمر الهادئ، هدأت ثورة المرأتين وبدت خطواته خاتمة لسجال بين جيلين. جيل ذهبية وجيل عمر و البنات: الصافية والزّهرة والتّاليا.

كانت التّاليا هي "المازوزية"[29]، والأقرب من الجميع إلى قلب الأم ذهبية. كانت أقرب الملامح إلى أيقونة الجميلات، خالتها الأجمل "عربية". نظراتها

[29] - آخر العنقود

ومشيتها، وكثيرٌ من ألوان فساتينها المميزة تغري الناظرين بها، وأولهم ذلك القادم من سلالة سالم عمّ تركي.

لم تنته مأساة عربية عند قبرها المجهول، بل ولدت مع ميلاد التّاليا. كان تاريخ العشرين من فبراير 1997، ذكرى مزدوجة، تحمل حياة وموتا. حياة ظلّ عربية، وذكرى وفاتها.

- ولدتِ -باختصار- في التأريخ نفسه لموت خالتك عربية، ولكن بعد ستين عاما

هكذا بدأت ذهبية تسرد حكايتها لابنتها الصغيرة، يبدو لها أنها ما تزال صغيرة، حتى وإن تجاوزت التسعة عشر عاما، وأحرزت في هذا السن شهادة البكالوريا في سابقة من نوعها في ديار حاسي بحبح. أرادت ذهبية من خلال الاقتراب منها أن تحرسها، تنبّهها، وتُبعد عنها شبح المصير ذاك. بعد أن لمحت نظرات عربية ذاتها في عيون من تشبهها.

تدرك ذهبية، وسنوات الجمر بعد الاستقلال لا تزال تطاردها وتطارد ابن عمّها الزوج المقعد في البيت لسنين، أن زمن "القايد وأمثاله" قد ولى وانتهى مع خروج آخر الجند الفرنسيين من قطرها الغالي. ولكنها لا تضمن مصير الرصاصة الأخيرة، التي تحفظها هي نفسها من بندقية والدها القايد.

- من هو وكيف عرفته؟

كانت الأم مباشرة في السؤال.

- عامر..

استحت أن تقول لأمها، بأن رقمه كان مخزّنا في ذاكرة هاتفها، المهدى من شقيقها عمر منذ سنتين.

- عامر؟ من أي عائلة؟

- أبوه يدعى سالم، ومن تجار الماشية.

أطرقت ذهبية بضع ثوان، وكأنها تستحضر حقبة، لا يبدو أنها ستدع العائلة بأمان:

- سالم بن محمد من عائلة بن عبد الله؟

- نعم يا أمي اسم العائلة عبد الله

- وماذا يعمل الفتى؟
- إنه تاجر.
- ؟
- نعم يتاجر في كل شيء..

كانت تلك آخر جملة للمرأتين. وقد اطمأنت التّاليا أن والدتها، وقد تعوّدت أن تسألها فيما مضى عن كل صغيرة وكبيرة، ستجاري رغبتها وتقبل بالزواج من عامر بن سالم، وستقنع أخاها عمر الذي يصرّ دوما أن التجارة ليست ضمانا للعيش والاستقرار مثل الوظيفة. فهو كأبيه سليل الإدارة، ويعرف أن "الدّولة" أكبر ضمانا من رؤوس أموال الشعب.

لم يذب فرح التّاليا الغامر، إلا نظرة استرقتها من والدها تبعث بكثير من السؤال.

في اللحظة التي همّت فيها الفتاة، باقتحام أفكار والدتها. دلف إليهما عمر، ملوحا بكيس أسود، قد حشرت فيه أوراق كثيرة على ما يبدو من تناثرها وراءه:

- ما ذا تحمل يا وليدي؟
- لا أعرف لم يصرّ والدي على حرق هذا الكم من الورق؟
- ماذا؟

أجاب عمر والدته، وقد فرّت منه ابتسامة ساخرة:

- لقد طلب مني إعدام ما في الكيس قائلا: أحرق علي هذا الهم!
- أعطنيه، سأتولى أمر هذا الكيس اللعين.

لتضيف العجوز:

- يبدو أن هذا الشيخ المُقعد قد ملّ من وحدته..

لم يملّ سليل "القايد" من وحدته فحسب، بل ملّ من حياته كلها. ففي الدّقائق القليلة التي يستطيع فيها الاستفاقة من حالة البركنسون النادرة، تنهال عليه صور التشفّي التي عانى منها، بعيد 1962، والتي ساهمت في بقائه في كرسي من خشب فرنسا. طبعت في بعض ذاكرته المليئة بخدوش النسيان الإكلينيكي، مئات العبارات من شفاه من أمسكوا بزمام الأمور باسم جيش التحرير، أدناها: أنت وابن عمّك المقبور شنابيط فرانسا...لا مكان لكما في الأرض الطاهرة.

لم تكن Geneviève هناك لتحميه من أبناء جلدته، مثلما حمت تركي من أنياب صهره، بعدما أجهز على فلذة الكبد، في ثورة شرف عربية، تحت الحكم الفرنسي.

مضى النقاش بين ذهبية وابنتها من أحاديث المحبين، والروابط الزوجية الموعودة، إلى ترتيب كيس فيه كثير من ريح الماضي، التي ما تلبث أن تنسى للحظات، حتى تعود من جديد.

ذهبت المرأتان معا إلى غرفة المعيشة الرباعية، وقد علاها لوح يمسك بقوة القرميد الأحمر الجميل الآتي من البليدة منذ قرابة الثمانين عاما تقابل تلك الغرفة الردهة الكبيرة، وهي تحفظ إكسسوارات غالية، كلها من الخشب، الكل يفصلها جدار من الزجاج الزهري، كلما فُتح إلا وأطلّ على الحوش الواسع ذي الـ 200 متر مربعة، والمليء بشجيرات الليمون الحبلى، مع كل ربيع بأنفاس الياسمين.

على الأرضية المغطّاة ببلاط أبيض وأسود لم يؤثر الزمن على لونه وجودته، نشرت ذهبية وبمحاذاتها التّاليا ما في الكيس من أوراق، متعدّدة اللغات من العربية إلى الفرنسية، مرورا بالإسبانية. للإسبانية سهمٌ في دار شقيق "القايد"، كيف لا وأم عربية إسبانية المنبت واللسان. لم تستغرب البنت صورة روزالينا، الزوجة الأولى للقايد، وقد رمت بها ذهبية جانبا. كانت تلك الصورة على الدوام معلقة على جدار ذاكرة التّاليا، وفي حكايات ذهبية. مثلما هي معلّقة في غرفة باقي شقيقاتها البنات منذ أن وعين. صورة كبيرة بالأبيض والأسود، تهيمن روزالينا على إطارها وهي تحمل "عربية" الصغيرة، وقد كُتب في أسفلها:

مع ترتيب الأوراق، ومحاولة تقسيمها حسب القدم والأهمية، تبرز من حين إلى حين صور، لم تكن التّاليا قد سبق وأن رأتها. ولكن ذهبية تحاول جاهدة رغم كبرها تنظيف المكان، ونسيان أمر الماضي. ولكن التّاليا أعادتها إليه وإلى كل صورة منه حين سألتها، وسط أجواء الصفاء التي تنزّلت للحظة:

- هل ما زلت تحبّين أبي يا أمي، وقد بقيتما كل هذا العمر معا؟

لم يكن السؤال على بساطته، يدور في خلد السيدة العجوز. ولم تتوقع أن تكون التّاليا بهذه الجرأة كي تطرحه.

كان الصمت سيّد المكان، كما عهد ذلك أهل البيت والخيام على الدوام.

بعد أن أطرقت ذهبية مليّا، وجّهت إلى أصغر البنات نظرة، كانت بوابة على ما يبدو لحديث قد يطول:

- ما دام أنك تعرفين أن الزواج يقوم على الحب. فاسمعيني يا ابنتي.

تربّعت التّاليا لتنصت، وأجواء العصر تحوم على الدّار والحوش، كما كانت أسراب القطا تحتضن أرض حاسي بحبح فيما مضى:

- سيعلم أعمامك، وأخوالك بزيجتك هذه. وأغلبهم لا يعرفون شيئا عن أمرٍ، سيحدّد بالتأكيد مسار حياتك مع شريك عمرك هذا.

بكثير من الاهتمام سارعت التّاليا إلى سؤال أمها:

- أمر؟ ما هذا الأمر؟
- عامر هذا، هو ابن سالم. ولسالم أخ يدعى تركي
- عامر بن سالم...أعرف ذلك! وما دخل أخ سالم في الأمر؟
- تركي هذا يا ابنتي، كان سيتزوج خالتك عربية..
- رحمها الله..
- وقد كانت له معها قصة!
- قصة؟ ما قصّتهما يا أم؟
- كانت عربية..

مع لفظة عربية، ولج عمر إلى الردهة من جديد، حاملا ملفا:

- أين دفتر الشيكات يا أمي؟

- لو كنت تزوجت، لاعتنت بك زوجتك وما حمّلتني في شيخوختي وزر أغراضك.. وضياعها في كل مرّة..

يدرك عمر أن حس الدعابة، المختزن في حديث ذهبية، يُبعد عنه لوم نفسه في مسألة الزواج.

- ما قيمة الزواج يا أم؟ ولدي امرأة مثلك؟

اختصرت ابتسامة ذهبية سؤال عمر، وأشارت بيدها إلى رف مقابل للباب:

- ستجد الدفتر وسط المذكرة في الأسفل.

حمل الشاب الدفتر، وقد أوحى إليه باستحضار جلسة المقهى مع تركي:

- لقد التقيت اليوم بشيخ من جيلكم، وله خط جميل، دعاني إلى سؤاله عن سرّ تفوقهم الدّراسي..

أخذ التّاليا فضول السؤال:

- وهل تعرفه من قبل؟

أجابها وقد أشاح بوجهه سريعا عنها:

- ولو أن الأمر لا يعنيك إلا أنني لم أعرفه إلا في المستشفى. كان نزيلا عندنا واسمه تركي.

صمتت المرأتان حين ولوج اسم تركي من جديد إلى غرفتهما، وراحت خطوات عمر تدفعه إلى الشارع بعيدا عن أجواء البيت.

مع اقترابه من الخروج، بعثت ذهبية إلى عمر:

- لا تنس، بعد سحب الدّراهم من البريد، أن **تحضر المصروف** من السوق!

ينتظر سوق الخضار، خطوات المشترين من أمثال عمر، كما كان سوق الأنعام يحن ولا زال إلى خطوات البدويين من المحبين للمواشي.

سار عمر سريعا، وقد ملّ من زيارة السوق.

دخل إلى البريد والناس من حول الشبابيك محتشدون، وبدا أن السيولة غير متوفرة لهذا اليوم. عليه الانتظار كالباقي، وربما عليه الصبر لسماع صياح هنا وهناك. ولكن طبيعته الفائرة، وعصبية تأخذه دائما إلى العراك مع الشباب ممن لا يحترم طابور الانتظار الطويل. وغير بعيد عن ذاكرة عاملي البريد، وقعت هناك مشاجرة بينه وبين أحدهم - وهو جندي من أبناء بلدته- حينما دخل متأخرا ووجده في لحظة استلام الراتب، فقام وأخرج بطاقة الجندية قائلا للعامل:

- أرجو أن تسحب لي هذا المبلغ..

همّ العامل بأن يصرف للجندي مبلغه، قبل أن يتدخل عمر وهو يصيح في وجه العامل والشاب العسكري معا:

- واحنا ما ناش عباد، ما كش تشوف فينا؟[30]...

وما هي إلا مناوشات كلامية، حتى أمسى المركز حلبة دعت الشرطي الرابض غير بعيد إلى التدخل -وإن متأخرا- لفك النزاع..

يعرف أعوان البريد عمر جيّدا. ويتجنبون الحديث إليه ومعه. ويضطرون في أحايين كثيرة إلى إنهاء معاملته بسبب مزاجه العصبي الشديد، كأن جينات جدّه القايد عاودت الحياة في كل خلاياه الشابة. لم تكن تلك العصبية لتظهر، وهو يحدّث تركي. ترى ما كان موقفه، لو عرف تفاصيل القصة بحذافيرها.

قصة تركي وعربية، لم تغادر بيت القايد، حتّى بعد رحيله ورحيل عربية. لم يطل بَعْد ذاك الرّحيل بقاء الأم روزالينا، إذ رحلت من الدنيا سريعا، ورحلت معها تلك الملامح الإسبانية، كما رحلت عن الشرق ليالي الأندلس بما فيها من "طراز الدّرر"، ولم يبق غير اللسان العربي، لاهجا بكل حروف الأبجدية بصوتٍ يندب صفحات التاريخ ونكباته.

مرّ عمر على البيت كلمح البصر، وترك بين يدي والدته ذهبية، سلتّه المطرّزة بالسعف وهي عامرة بخضر وفاكهة سوق حاسي بحبح، متوجها رأسا إلى مستشفاها.

---

[30] - ألسنا ببشر، ألا ترانا؟

تلقفت الصافية وهي البكر حزم الخُضار، ولولا لسانها اللاذع لكانت درّة مكتملة القيراط. هي طباخة البيت، وقد ورثت مأدبة بيت القايد وأنامل الأندلسيات السخية.

مع انتهاء ترتيب ما كان في كيس عمر، أخذت ذهبية ابنتها على حدة، وأكملت ما بدأت به حديثها:

- قد حدّثتك مرارا عن روزالينا زوجة أبي الأولى، وما لا تعرفينه أنه بسبب تركي هذا لقيت عربية حتفها.

راحت التّاليا لدقائق موجعة من الزمن، تستمع باهتمام إلى كل صغيرة وكبيرة من تلك الحقبة، ولم تكن لتهتم بصور عربية الجميلة، ولا بذكائها الأخّاذ، بقدر اهتمامها بمصيرها المفجع. وتابعت حديث ذهبية بتركيز كبير، وهي تسترسل:

- بالتأكيد جنّ جنون روزالينا وهي تسمع الخبر. ولا يستطيع أحدٌ ممن عاصر الحدث أن يصوّر كيف كانت حالها تلك اللحظة. فحتى والدتي – جدّتك- وهي تروي لأول مرّة ما جرى للضرة الإسبانية، لم تتوقف عن البكاء..

غلبت التّاليا دمعة حرّى، وهي تتابع الحكي وإذ بها تسأل:

- مسكينة، كيف تراها عاشت ما تبقى لها من عمر على وقع الذّكرى الأليمة؟

- وكيف كان لها أن تعيش...كأن لحد ابنتها سحب منها العمر ودعاها إلى جوار ربها..

- ماتت؟

- بعد أقل من ثلاثة أشهر..

- إنها فاجعة..

- ليت الأمر توقّف عند هذا الحدّ؟

بشيء من الاستغراب والتعاطف، طفا السؤال الرّديف:

- وماذا بعد؟

حلّقت عيون ذهبية عبر فضاء حاسي بحبح، وأخذت نفسا عميقا:

- لم يبق من عائلة روزالينا فرد آخر، بعد أن هامت شقيقتها الوحيدة على وجهها، ولا أحد يعرف وجهتها..

لم يكن بمقدور ذهبية، أن تزيد من سواد الصورة، وتخبر التّاليا أيضا، بلحظة نهاية والدها "القايد". ذلك الصلب القوي، على يد سيف قاطع، وأي سيف؟ إنه سيف والدته الحاد. لم يمهله إلا عاما آخر ليلتحق بركب الرّاحلين. ففي جلسة العائلة المرموقة، وقفت والدة القايد أمامه ابنها وهو يطارد الهواء ببصره:

- لو كنت رجلا لما جعلت ابنتك عرضة للهتك، ولما استسلمت لأمر النصرانية..ولكنك خديم لفرنسا، وستبقى أيّها الدّيوث..

رقد جسد القايد العليل عاما أو بعضه، وهو يكابر أمام من يعرفه ولا يعرفه. وانطلقت رصاصة الرحمة من والدته من جديد، ليرحل مع الرّاحلين. ولم تنفعه البندقية الفرنسية، التي لم تكن تاجا في هذي الدّيار إلا على رأسه.

مات القايد، ونسيت فرنسا أن لها خدّاما في الوطن الجريح، كما نسيت أن لها جندا من أمثال سالم البدوي ورابح التلي. وأزالتهم بمحاة من النسيان من قائمة التّاريخ، ولم يكن بمقدورها أن تمحو رحلة سفينتها العسكرية، وقد انطلقت ذات خريف من بريست إلى "نورفيك" النرويجية وأنفاس كل من العربيّن تزداد برودة ووجلا.

*

من "نورفيك" إلى إفريقيا

"البلدان الكبيرة، أمست كبيرة لأنها أرادت ذلك"

-شارل ديغول-

استفاق سالم فجأة على وقع صوتٍ غريب، بعد أن كان متكئا على سياج السفينة. لم يعرف في البدء ما الأمر وسط لجة السكون، ولكنه حينما بعث بعينيه وسط ظلمتي البحر والليل، انبعث نورٌ ذكّره بأجنحة القطا وهي تبعث عبر حركة جناحيها بالحياة والبصيص. إنها أسراب لطيور أشبه بالقطا، ولكنها أكبر قليلا.

على صوتها، ودّع سالم تلك الغفوة، ولم يتسن له أن يعرف متى استسلم للنوم، وهو الذي يحدّد مدة نومه واستيقاظه لساعته البيولوجية. يداعب البحر صفحة وجهه العربي، ويبعث إليه بنسمات أيبيرية باردة. نسمات دعت تلك الأسراب إلى الفرار بفطرتها نحو دفء وطنه، الذي استودعه عند المؤمنين بالأقدار هناك في بواديه.

*

في الثامن من جوان 1940، وعبر أثير صوت فرنسا الحرة، انطلقت أفراح الانتصار بأول إنزال للحلفاء، وبثت أمواج الراديو كرونولوجيا أول إنزال بحري، تخلّلته وصلات موسيقية من الجوقة العسكرية:

يصف المؤرخون الحروب -عموما- وفقا لخصائص كل منها، فالحرب الكونية الأولى هي حرب الخنادق. أما حرب 1939 فستكون حرب الإنزال بامتياز. وأول عملية بهذا النوع تمّ القيام بها من طرف القوات الفرنسية والبريطانية على سواحل النرويج. نحن في أبريل 1940، حيث اجتمعت قوات التدخل السريع، المكونة من لواء المشاة الجبلي للفرقة الخامسة والسابعة والعشرين، والفيلق الأجنبي الثالث عشر بقيادة العقيد موريس كازو، على رصيف ميناء "**براست**".

*

الحالة النفسية للجند في أوجها، نشعر بها بجوارحنا وندّعمها. تم شحن عدد كبير جدا من التجهيزات العسكرية، التي لم نعهد بعضها في مثل هذه الحروب، كمعدّات للثلج منها (مزلجات، أحذية تزلج، معاول حديدية معاطف كندية، جزمات مطاطية)، التي تشكل بدورها معدّات خاصة للتأقلم مع مكان وطقس أقصى الشمال الأوربي، حيث ستجري المعارك عليها.

أما المعدّات المعهودة، التي منها الحيوانات الموجّهة للنقل. أو العادي، بالإضافة إلى الآلات الميكانيكية التي تجد مكانها بعد عناء نقلها داخل عنابر السفينة الحربية. الجنود يحضرون أنفسهم للانطلق الذي يقترب، وذلك بحمل الأغراض، وتسلق سلّم لا يتوقف لصعود السفينة وهو آخر رابط لا زال يصلهم بفرنسا الوطن.

كلاب مدربة قوية هي الأخرى من ضمن الحمولة العسكرية، قد جلبت خصيصا من أيسلندا وغرينلاند. وأخرى صغيرة وحركية، سيقت في مثل هذا السفر الشاق، تيمنا بالحظ السعيد. وكلٌ منها تحفظ مكانها وكرامتها الـ 18 من أبريل، تُبحر القافلة على مرآى ومسمع من الجنود المكتسين بالملابس الشتائية والرابضين على المرفأ هاتفين بالنصر والكرامة، خلف قادتهم الملوحين بمناديل التشجيع لقوات التحالف كل قوات الإنزال دون استثناء حاضرة في المعسكر، وقفت داخل طوابق السفينة الثلاثة إجلالا لإلقاء نظرة الكرامة لذكرى للوطن.

تركت السفينة المرفأ وراءها، مقبلة على معارك الدفاع عن الحدود والشعب، وقد وزّعت المجموعة العسكرية داخلها بحسب التنظيم استعدادا لأي مباغتة بحرية من العدو. ولم تمنعها الإجراءات من الاستمتاع بالموسيقى المحفزة عبر أكورديون هنا وتصفيق هناك.

كانت تلك ترجمة رابح التلي، لما حملته أمواج الأثير الفرنسية. كانت كلماته العربية دافئة وسط هذا الجو الجليدي القارص. ليتبادلا بعدها أحاديثهما المعربة وسط أصوات أعجمية ولهجات أوربية، تسبح بصعوبة وسط الفضاء النرويجي البارد. لم يكن البرد وحده من أفسد

استراحة المحاربين، بل أصوات المصابين وأكوام الجثث، التي انتشرت قبورها على طول الجزيرة الفايكينغية، جعلت كل الجند في حالة التأهب المنتظرة. ولولا الانتشاء بسطوة القوات المتحالفة لما استراحت عيون الجند، والعرب القليلة.

اندس كل من سالم ورابح داخل بطانيتين من قطن أطلس المغرب المخلوطة رزمه المستطيلة بزفرات العمال الشلحية والعربية، وكأن أنفاس الجزائر تطل -بشموخ القرون- من ملامحهما السمراء، ينفضان عنهما شيئا من جليد الشمال الأوربي.

بدا كل منهما أقل الجند ارتعادا من البرد، خصوصا من الأيبيريين والفرنسيين الجنوبيين أنفسهم. وكأن بمناخ التّل والسهوب، الممتد طوال فصل الشتاء الجزائري من تشرين إلى مايو. تطعيم جاد لهما، ومضادٌ حيوي لجسميهما.

انتهت "نورفيك" على حصيلة ثقيلة من خسائر الألمان، وانتهى حلم النازيين بتوفير الأمان والحراسة، لخط الإمداد البحري الوحيد لهتلر وقوّاته المطلّ على بحر الشمال، والأطلسي فيما بعد.

لساعات طويلة، استراح الجند، وبإزائهم الناجون من الكائنات التي حُملت في سفينة الحلفاء كالدواب والكلاب. مضى الكثير من تلك المدّة في البحث عن حديث الذكريات وتدفئة الأجساد. وخلف كل مجموعة، لفت نظر سالم حركات أقلام بعض الأوربيين –وهم بريطانيون في الأغلب-، وهي تلهب البطاقات البريدية بحبر لكلمات تختصر الحوادث والآلام وقليل من البعد.

تلقف سالم بسليقته تلك الصورة، وراح يسأل رابح:

- هل يمكنك أن تكتب لي شيئا للأهل؟
- وهل يعنيك كثيرا أن تصف الحرب لأهل الخيام، يا صديقي..
- يا سي رابح اكتب لي فحسب..

- دعنا نستريح من هذه الحرب، لتقوى أيدينا على الكتابة.. سأكتب لك لا تقلق..

كان هذا الوعد بالكتابة قد تأجل إلى أجل غير بسبب، بسبب ما أصاب أغلب أيادي الجند من آثار البرد والصقيع، وبالأخص بعد عمليات التنظيف التي أعقبت شهرا من الكرّ والفر. واغتنم الجند العرب بعد هدنة غير معلنة بين القوات الألمانية والمتحالفة بعضا من استرجاع الأنفاس. غير أن الأوامر العسكرية، التي تأتي كعادتها دون سابق إنذار دعت الفيلق إلى الاستعداد والتجهز. ما زال الجند العرب يحتفظون بشيء من القوة، بسبب لحوم البقر الطازجة التي كانوا يقتاتون بها خلال شهر ونيف.

عبر سفينة غير معلومة الهدف والمهمة، نُقلت الفرقة كلها على جناح السرعة. وأبحرت في منتصف يونيو 1940، ليجد الجند أنفسهم على مقربة من ميناء "بريست" من جديد.

لم يبق الأمر سرا، وها هو رابح يذيع الخبر على طريقته:

- يا سي سالم استعد لمجابهة ألمانيا في البيت الفرنسي..
- وأنت؟ ألست مستعدا..؟

سؤال سالم الممزوج بشيء من السخرية، ومن الخبر وحيثياته، ما لبث أن بدا حقيقة.

*

غزت القوات الألمانية فرنسا، وحشدت الحشود نحو عاصمة الإمبراطورية. وبدا أن الفرقة الثالثة عشرة ستتجه رأسا إلى باريس. ولكن الخطة كانت أن تتجه الفرقة إلى بريطانيا العظمى، حيث يستقر رمز فرنسا العسكري الجنرال ديغول، وعلى أمواج إذاعاتها يبعث بالتحفيز والمطالبة بالانضمام إليه، بعد الخيانة الكبرى، التي سمّيت في أشهر كتب التاريخ بحكومة فيشي، بقيادة "Pétain"، الموالي لعدو فرنسا وأوربا الأول أدولف هتلر.

لم يكن من الجند العرب بمن فيهم سالم، المحمّلين على سفن الحلفاء، من يعي ما يحدث إلا رابح بولعراس. الذي يدرك جيدا أن خطاب الماريشال جورج أرجونليو، ابن ميناء بريست، سيأخذه رفقة الفرقة الرابعة عشرة، بعد أن كانت تسمى اللواء الثالث عشرة، إلى قارة أنجبته وأنجبت الكثير من مرافقيه. سيتّجهون إلى أبعد ميناء إفريقي، إلى داكار.

*

بعد نفاد المؤونة الطازجة، والتي كانت تفد إلى الجند ثلاث مرات في اليوم، طال النقصان قهوة المساء المعتادة بلذة مذاقها، ولحظات إغرائها التي عاشها الجند في رحلة الشمال، المليئة بالكثير من الرعب والقلق وأصوات المدافع النازية.

غير أن مؤونة أخرى بدأت تفد إلى مئات الجند، وتُثقل أمعاء العرب منهم. فهم غير معتادين على أكلها. مثل مصبّرات الجبن واللحم التي جعلت بعضهم يرتابون في مصدرها. ولولا التعليب المطمئن، لقَتل الجوع كل الناطقين بالحرف العربي، تعليب لخصّه رابح بـ"**الكورنيد باف**" أو" **اللحم البقري المعلّب، بصلاحية عامٍ كامل، 200غرام**". تلك الكتل اللحمية المملحة، التي عرفها الجند الفرنسيون والعرب عن طريق القوات الملكية البريطانية. وقد جلبت لهم مع مطلع العام لأول مرة من مخازن القوات الأمريكية.

- لولا أمريكا لما عرف هؤلاء الإنجليز "الكورنيد بيف" أو حتى السجائر الشقراء، التي يتبجحون بدخانها مع كل مساء..

بهذه الجملة، التي لا تخلو من غيرة، ترجم رابح لصديقه سالم، ما باح به همس القائد الفرنسي لبعض الجند العرب في الفيلق...

*

طول الرّحلة العسكرية. وقسوة ظروفها أرهقت هؤلاء الشباب، ولم تكن إشكالية اللسان بالأمر المزعج لهم، فسواعدهم الشابة التي صقلتها مواسم سالفة من الحصاد، وأناملهم الطّيعة في زجّ خراف بواديهم حلّت محل النطق واللسان، عبر الإشارات والرموز وحتى الضربات الخفيفة من حين إلى حين . إذ لم يشعر سالم ورفيقه حين الوصول إلى سواحل السنغال مع نهاية أغسطس 1940، أنهما أمام حربٍ كتلك التي شاركوا فيها، بحمل القذائف حينا وبحفر ما يلزم أحايين أخرى.

لم تطأ أقدامهم أرض داكار ولا لساعة واحدة، ولم يكن يسمع إلا دويّ المدافع ليلا، والرسائل الصوتية من المناصرين للجنرال ديغول نهارا.

مضت خمسة أيام على مرفأ داكار، كانت مليئة بالغرابة وبالعبث وبمفارقات الزمن. إذ عرف الجند – وهم من أعراق مختلفة- لاحقا أنهم لا يحاربون القواعد الخلفية للنازيين فحسب. بل هم أمام خصم **فرنسي** وجنود أفارقة أيضا، ولكن الولاء العسكري أمسى أمام جنود الفرقة الرابعة عشرة، هو وحده الدّين والوطن. إذ شعر الجند الفرنسيون المرافقون للعرب وللإنجليز -لأول مرّة- مع بدايات إنزال الحلفاء بقيادة المارشال جورج أرجونليو، أنهم أمام أبناء جلدتهم. فأولئك يناصرون حكومة **فيشي** وهؤلاء تدفعهم حماسة ديغول، التي بعثت بسالم ورابح إلى مناصرة فرنسا الحرة، كأنهم عبثا ينشدون حرّية وطنهم الضائع. وطنٌ زاد لهيب شوقهم إليه حين سماعهم لأول مرة، لصوت المؤذن السينغالي وهو يصدح به من بعيد. لم يصدّقوا ساعتها: أهي أمواج الراديو التي بعثت به إليهم من خلال حملات الدّعاية، لتحفيز الجند الأفارقة من الطرف الآخر على مناصرة حكومة **فيشي**؟ أم هو صوت مؤذن المسجد الأقرب إلى أفق بصرهم الحاد، على ربوة دكار المائية؟

لم يكن سالم ولا رابح يعرفان اتجاه القبلة وسط عباب هذا البحر الإفريقي، غير النصر الذي فُقد في داكار، أمسوا مجبرين على شدّ الرحال نحوها. ففي سبيل استرداد كرامة فرنسا في غرب إفريقيا، دعا الجنرال ديغول –الذي ترك لندن قادما إلى بحر المعركة- إلى الاستعانة بأول قائد لهذه الحملة، الملازم عقيد موريس كازو . كي يسير إلى قبلة النصر هناك بعيدا إلى جيبوتي في أقصى الشرق الإفريقي.

لم تكن رحلة الجند، سهلة فقد مرّوا مرور الفاتحين على ميناء آخر عرّفه رابح لسالم بأنه ميناء الغابون. هناك، حيث كانت لهما وللكثير من الجند استراحة لبضع ساعات، بدأت بهدنة ديبلوماسية، على عكس أجواء المعارك، يغاث فيها كلا الجناحين.

كان الجند وبالأخص سالم ورابح يتوقون إلى كل ثانية من مثل هذه الهدنة، بعد شهرٍ أو يزيد من التّعب والتحميل، وغسل الملابس، وأحيانا على العس ليلا لساعات، كانت طويلة وباردة مع خريف هذا العام القاسي.

عامٌ كانت أرض سالم، هناك في حاسي بحبح، قد وصفته بأبلغ وصف حين رمته بعام "الشر". ذلك الشر المندسّ في الجوع، والمرض وآهات الحرمان والفقر.

لا يعلم سالم أن حاسي بحبح فقدت في عامها هذا كثيرا من أترابه وأتراب ابن أخيه تركي، ومن الأجداد والآباء. ففي العائلة الصغيرة وحدها أكل الجوع -الذي دعاه إلى الإبحار مع قوات ديغول دون مجداف الأمل- جدّه ووالده. وكم كانت مرارة والدته كبيرة، فقد كانت بين نيران الرعاية لأسرتها الصغيرة، والجوع يأكلها ويأكل ربّ البيت وتركي. ولولا ما تبعث به Geneviève كل أسبوع، لكان مع الرّاحلين كل من تركي ووالده.

لم تكن الأخبار تأتي إلا بالشر، فهاهو جارٌ آخر، قبالة خيام حاسي بحبح، يُحمل على الأكتاف الهزيلة، في مشهد بات مألوفا. لم تكن حرب هذه الأسرة في أقصى إفريقيا، مع الجندي المنفي هناك فحسب، بل هي تقبع بسلاحٍ من الجوع والفقر هناك في هضاب الجزائر، الممتدة من المدية شمالا إلى الأغواط جنوبا، مرورا بحاسي بحبح التي لا تكاد تُذكر إلا بسوقها.

لخّصت عجوز هناك، تقترب مشيتها من تلك التي اصطنعتها "عربية" وهي تصيح على فقدان نعاجها، بالقرب من تخوم السوق :

- ما بقى بيع ولا شرا...ما بقى غير لخلا؟

خلا سوق حاسي بحبح من ماله ودرّته، من تلك الأنعام والإبل التي ما فتئت تتزاحم على الكلأ بالقرب من سوقه، ومن مقاهيه المطرّزة بالخيام البالية، ومن أقدام مريديه لأكثر من ثلاثة أشهر.

أشهرٌ ثلاث، كانت كذلك المدّة الزمنية لوصول قوات فرنسا الحرّة المتحالفة مع البريطانيين، وسفنها الحاملة لسالم ورابح المرهقين والضامريْن إلى "إريتريا". وهناك أعيدت تسمية فرقة العرب إلى اسمها الذي كان منذ انطلاقتها من ميناء العاصمة: الفرقة الثالثة عشرة.

لم يكن ينتظرهم النازيون هناك ولا الموالون لهم مما عرف بقوات المحور، بل حلّ في سماء معجم الجند مصطلح القوات الإيطالية "الفاشية". وهي قواتُ موسوليني التي ترمز أساسا إلى سيادة قوات المحور على غرب إفريقيا.

رغم التّعب الذي نال هؤلاء المشاة، إلا أن أصواتهم المندفعة مع عملية الإنزال الرهيبة، جعلتهم يجابهون القوات الإيطالية ببسالة كبيرة. لم يكن أحدٌ منهم يتوقع أن عملية الإنزال هذه، ستكون بهذه المفاجأة وتلك القوة. وكأن حنين الحلفاء إلى الأرض بعد رحلات البحر الممتدة طوال خريف 1940 وشتاء 1941، قد بعثت فيهم حياة أخرى، وأنعشت شجاعتهم. وأمدتهم بطاقة مضاعفة.

قتالٌ ضارٍ فقدت فيه قوات التحالف نزرا يسيرا، وتلقت إصابات عديـدة كانت إحداها على كتف رابح.

ولكن تعداد الأسرى من قوات المحـور، والإيطـاليين بـالأخص لم يكـن ليصدقه أحد إلا كتب التّاريخ التي رسمت قائمة من ثلاثين ألف أسير.

انكسار إيطالي، عجّل ببداية انتهاء أسطورة موسوليني. وفتح بالمقابل شهية الحلفاء، على الإبحار من جديد، بهذه السـواعد الشـابة مـن أجنـاس العالم العديدة وأغلبها من الشمال الإفريقي والجزيرة البريطانية، إلى جبهة أخرى، قد بدت لكل من الجزائـريِيْن آخـر محطـة. محطـةٌ سـتتكلم أخـيرا بالعربية.

أجراس الشام

Vers l'Orient compliqué, je volais avec *des* idées simples

"نحو الشرق المعقد، حلّقت بأفكار بسيطة"

من مذكرات شارل ديغول

حينما أعلن الجنرال "كاترو" أن تبعيتها عادت لفرنسا الحرة مجددا. عاد الصمت إلى سماء دمشق، فتنفس الجند المتعبون من الفيالق الفرنسية العديدة الصعداء. وكان هناك متّسع لسالم وتركي كي يعودا إلى لغتهما، وقد تعودا خلوتهما بعيدا عن كثير ممن رافقوهم الأميال المرهقة. عاود سالم استحضار رغبته في كتابة شيء ما، على طريقة البريطانيين تلك لإرسالها إلى الأهل والخيام. كان ليل الشام في لحظاتهما هذه عبوسا، وإن بدا أن البدر يقترب من تمامه. يدرك رابح أن سبعة أشهر قد مرّت على صومهم لرمضان، وهم في عباب البحر. ورغم علمه بذلك إلا أنه أعجب أيما إعجاب برد صديقه البدوي حين سأله حينئذ:

- كم بقي على رمضان بالضبط يا سي رابح؟
- بالضبط ؟ لا أدري..ولكن هناك ما سيعيننا على معرفته...
- أكاد أشعر أنه بُعيد أسبوع..

بعد أسبوع تماما، مرت سفينة الشمال إفريقيين على مياه المغرب وأعلن مذيعها العربي عن بداية شهر الصبر. أدرك رابح ساعتها، معترفا في أعماقه بـ : **أن الشيطان لا يخشى من علم أمثالي، بقدر ما يخشى من إيمان سالم وأمثاله.**

دعا أنس رابح بصاحبه، إلى كتابة ما يرغب البدوي نحو أهله. أولئك المبتعدين عنه بأميال وربما بسنين.

- اكتب يا صديقي..

أمرٌ بدا لرابح كأنه، ترجمان لأشواقٍ غائبة.

- لا تقلق سأكتب كل ما ترغب..لا تطل علي فقط..فنحن في قلب الحرب.

صيف 1941

أبي، أمي ...
السلام عليكم،
أنا الآن في الشام. وبقربي صديقي رابح التلي. وبيده القلم والدّواة.
بعد مسيرنا الذي دام لأشهرٍ، وجدنا أنفسنا أخيرا في بلاد تذكرنا ببلادنا. هناك أصوات عربية كثيرة، رغم أن أكثر الجند من النصارى.
كانت الأيام القليلة السابقة قاسية ومتعبة. ولكنها ليست كتلك التي قضيناها في عباب البحر. أثناءها كان الجوع والمرض أقرب لنا من اليابسة.
كتبت لكم في أقصى الشمال الأوربي، وها أنا الآن في أقصى الشرق.
لا أخفي "وحشتي" إليكما وإلى محمد وابنيه، وخصوصا تركي.
أدرك أنكما في حاجة كبيرة إلى كل سنتيم، ولا يخفى علي حالكما الصعب ولكن اطمئنا. أخيرا تحصلنا على مبلغ سأحاول تحويله إليكما. فصبرا لأنه قد يصلكما بعد أشهر. كانت ظروف الحرب قاسية، وبالكاد تحصلنا على نصف الأتعاب..

قبل أن يواصل رابح تدوين كل ما تلفظ به صديقه، غلبته تنهيدة وقد استحضر على ما يبدو، أعالي المدية، وأخرج من جيبه مع السجائر السمراء كل ما تحصل عليه هو الآخر، هامسا في أذن صاحبه:

- هي لأهلك يا سي سالم!

لم يقو سالم على سؤال صاحبه، الذي واصل الحديث قائلا:

- لا أهل لي يا صديقي سواك..
- ماذا؟ كيف؟ لا أفهم يا سي رابح

وكأن بلسان حال سالم يقول: طوال هذه الرحلة المليئة بمعاناة كل منا لم تبح لي عن الأهل شيئا.

همّ رابح بالكتابة من جديد، ولكن صفارة الإنذار العسكري بعثت إليه ولصاحبه بوجوب ترك كل شيء وأخذ الحيطة. ولأنها مناوبته في العس، فقد ذهب رابح مسرعا نحو الخندق البعيد بضعة أمتار عن معسكرهما، تاركا وراءه الرسالة وتعبه لشهور. مع انطلاقته المحشوة بالشباب والقوة، أرسل شبه نظرة إلى صديقه سالم، لم يدرك محتواها إلا بعيد ثوانٍ. حين سقطت من السماء قنبلةٌ أحرقت الفضاء من حولهما، ورمت برابح إلى الفضاء، وجسده النحيف يكاد يختلط بغبار الشام.

كاد سالم الشاب أن يفقد عقله من هول هذه الصورة، ونبض قلبه نبضة تُشابه على ما يبدو نبضة الرحيل، وغاب عن الوعي إلى حين.

*

لم يستفق إلا على رائحة الكحول الحادة، وهي تقتحم منخريه بهدوء، بيد ممرضةٍ بدت له شامية من خلال السؤال:

- ارتحت؟

كأنه لا يقوى على الحراك ولا على الحديث:

- أه..

اقتربت المرأة الشامية من سالم، وهي تحاول أن تهدّئ من روعه. ولم تشأ أن تقول له إن ذراعه هي الأخرى، كانت بين حياة وموت..

- إنت هلأ بخيـــر وأحسن كتيـــر.

لم يصعب عليه أن يفهم المحتوى، وكأن بالشامية -وهي تطيل مدّ أواخر الكلمات- بدوية مثله.

مع جلاء الصورة، ومغادرة الممرضة، اكتشف وهو يبصر السطح والجدران أنه وسط ديرٍ من أديرة الشرق، وأن هذا الجزء الصحي منه، هو مستوصفه.

مع شيء من الأنين، وكثير من الصمت المحيط به، راح سالم ببصره يتأمل أرجاء المستوصف العسكري الذي ذكره كل ركن فيه بكنيسة Geneviève.

*

تلك الرّاهبة، التي شغلت حاسي بحبح وسوقها عندما عرفت بأمر تركي وعربية. حيكت عنها الأساطير، وقيل إن عمّ سالم أرسل بسببها إلى الخدمة في الجيش. وقيل أكثر، إن تعاطفها مع تركي منبعه، حبّ تلك النصرانية لسالم. وخُتمت كل الأساطير بأنها ليست نصرانية بل هي يهودية، ومع علاقتها الأخرى بالمدرّس اليهودي Pérain إلا دليل على ذلك

أمست Geneviève بعد مضى السنين حكاية من حكايات حاسي بحبح الذهبية، ترويها الأم ذهبية التي أرادت من خلالها، على ما يبدو إقناع ابنتها بالعدول عن أمر زواجها من عامر.

إذ وبعد حديث الأم مع عمر، وطلبها معرفة كل صغيرة وكبيرة، عن الزوج المزعوم. كانت دهشته كبيرة أنه التقى بأخ عامر، وقد تعارفا في مركز بريد حاسي بحبح، ذات آخر شهر من شهور السنة العجاف. ولم يكن ذلك الأخ إلا الجندي الذي تبادل معه قليلا من الكلمات وكثيرا من لكمات الشباب.

عبر محمّد، عرف كل ما غاب عنه. وقد تأكد من أن تركي هو عمّ عامر ولا مناص من إخبار الوالدة.

- أرى أن تنسي الأمر يا ابنتي..
- لماذا؟
- ألا تدركين لحد اللحظة، أنه سيبقى يعيّرك بعمتك أبد الدّهر.
- ولماذا يعيرني؟

لم تشأ ذهبية أن تخوض أكثر، واكتفت بالقول إن الأمر أكبر مما تتصورين، وإن أبناء عمومتها يعرفون ما لا تعرف..

لم يكن الأمر بالسهولة التي فكرت بها ذهبية، وهي ترى في عيون التّاليا ما كانت كل عيون آل القايد تراه في عيون عربية.

تركت التّاليا للأسرة القرار، وأخذت لنفسها طريقة أخرى.

اتصلت بعامر، على غير ما اعتادت. ولم تسأله عن شيء واحد:

- لم لم تتقدم إلي إلى غاية اللحظة؟

كان عامر للسؤال مستغربا، ولكنه كان يتوقع أن تخوض التاليا في الجد يوما ما.

- بكل صدق، كان الوالد يماطل ولم أدر لغاية الآن لم؟
- إن كنت تريدني كما وعدت..فأنت أعرف بالبيت!

لم يكن بوسع عامر استحضار أي لحظات للعشق بينه وبين التّاليا وقد بدا الأمر جديا.

كان رفض والده يطارده في المدة الأخيرة ، وهو المسكون مثل كل أبناء حاسي بحبح، بقبول الأبوين لأي زيجة، بل ومباركتها..

غير أنه وفي لحظة مغامرة، بدا له أن يقتحم حاجز الخوف والصمت ويذهب رأسا إلى بيتها، ويدع والده أمام أمر الواقع..

سار بخطوات سريعة، ومتلهفة للوصول إلى عتبة بيتها. مرّ سريعا على طريق السوق وهو يشتم منه عبق الماضي، ولا يدري مع من سيتحدّث وهو لم ير الأخ إلا نادرا، ولم يُتح له أن يلتقي بوالدها، الذي خزنه المرض والعجز. ويدرك تمام الإدراك أن والدتها هي صاحبة الحول والطول. لم يكن عامر يحسد التّاليا إلا على جسارة والدتها، التي تأتيه أخبارها من حين إلى حين عبر صوت الأثير الهاتفي بين المحبين. وكم تمنى لو كانت لوالدته تلك القدرة والسيطرة على الأسرة بكاملها. لكان الأمر انتهى سريعا.

عاد عمر إلى البيت، وفي ذاكرته كل صغيرة وكبيرة، بعد أن فرّغ صديقه محمد ما بخزائن ذاكرته عن تفاصيل ما يعرفه عن هذه الأسرة. وقد زاد احتقانه بعد أن جمع حديث صديقه في المستشفى وبعيدها، مع تلك المعلومات التي جمعها بطريقته، من والدته ذهبية وهي تفرغ ما في جعبتها عن سرّهم الدفين، محاولة على ما يبدو إنهاء الأمر والابتعاد عن صداع الرأس. وما صداع الرأس ذاك إلا قصة عربية وتركي.

*

تركي، الذي استدعي على غير العادة إلى مركز البريد لاستلام رسالة على البريد المضمون.

لم ينس عادته الموروثة منذ عقود بأن يزور السوق، ولو أنه فارغ دون وافدين. ولاح له بقربه دون أدنى شعور رفيق الصبا والأيام الخوالي.

- واش راك يا سي تركي؟
- لا باس.
- راك شباب ما شاء الله؟
- ههه..الحمد لله.. وين رايح؟
- والله مكتوب ربي نشوفك..
- قرّب. واش تحتاج؟
- كنت حاب نحكي لك على حاجة. وما كتبش المكتوب..

بدأ الاستغراب يسري إلى تركي، كاستغرابه من أمر البريد، وسأل رفيقه:

- احك لي يا سي بن داود. خير؟

مع ابتسامة، أعادت إلى الصديقين روح الشباب وأنسه، أجاب بن داود:

- كل الخير إن شاء الله..
- عموما أنا رايح لأمر، وإن شئت نلتقي بالقرب من بيت أخي سالم..
- لا داعي...الأمر لا يستحق. نخلوها للغد وراني نجيك مع الصباح، إن استطعت ذلك.. هه

افترق الصديقان الهرمان، وقد ضربا لما تبقى لهما من عمر موعدا ولقاء. مع ثقل خطى تركي، وجد أن البريد يكاد يقفل أبوابه، والساعة تقارب الخامسة.

دخل منهكا وقد تراءى للعامل أن الشيخ بالكاد يردّ أنفاسه.

- يا لحاج، كنت تخلي واحد من أولادك يجي يدّي البريد؟

مجاراة للعامل أجاب تركي:

- أنا أو الأولاد كيفكيف[31] .

دامت عودة تركي إلى بيت أخيه ساعات. كان خلالها ممسكا بظرفٍ بدا كبيرا، ورائحة عتيقة تنبعث منه. وما زاد حيرته أنه يحمل عنوانا قديما باللغة الفرنسية، واسمه فقط.

لم يتأخر الشيخ الهرم في العودة المعتادة فحسب، فابن أخيه عامر هو الآخر. لم يعد منذ الصباح، ولم تكن عادته. مع خروج الشقيق **عيسى** للبحث عن الأخ والعمّ معا. توقفت فجأة سيارة للدرك أمام الباب العائلي والظلمة أخذت نصيبها من المكان، وتيقن الهرم أن شيئا ما قد وقع.

بعد أن أهدى السلام الجاف، نزل عون الدرك من السيارة **الخضراء**، وقد أطفأ ضوءها الساطع تاركا الخافت منها.

ما هي إلا لحظات من الحديث إلى سالم وابنه، حتى انتشرت الفجيعة بعدما غابت لسنوات طويلة من بيت تركي وأخيه.

يبدو أن الرصاصة التي احتفظت بها ذهبية، وجدت طريقها إلى سليل تركي لا إلى سليلة عربية.

انتهى مصير عامر. ومع الصبح **انتشرت** خارج بيت سالم كراسي المعزين. كان بن داود أول الواصلين. وليته ما وصل ليسمع الفاجعة الأخرى. زادت مأساته بسماع موت ما تبقى من عائلة بن محمد، صديق طفولته وشبابه تركي. جاء معزيا في شاب، فلحق به من هو أعز من الشاب.

---

[31] - سيّان

كانت سيارات الدرك والشرطة تحيط بكل مكان، خشية تعاظم الأمر بعد مقتل عامر.

وبعد ساعات طوال قضّاها بن داود وسط المعزّين من الأهل والأصدقاء وباقي المدينة. خرج يجرّ أساه، وهو الذي جاء حاملا لصديقه الاعتذار عن إخفاء آخر سطور عربية، وقد تركها عنده، إرضاء لصفقة أهدته علجية أخت أمها. وكم بقيت المرارة مزدوجة في حلقه. مرارة إخفاء رسالة عربية الأخيرة، ومرارة قبول إغراء بن فراج، خادم القايد وكاتم سرّه وفاضح تركي وعربية.

*

مرّت أيام ثلاثة على رحيل عامر وعمّه. وفي آخر يوم، كان محمّد وبجانبه حارس المقبرة آخر المعزّين، وهو الذي لف جثة تركي وهي تأخذ طريقها إلى جوار ربّها. جيء به ليلتها إلى المستشفى، وقلبه بالكاد يخفق. أسعفه محمد الذي كان يناوب تلك الساعة من فجر الخميس، وإذ به يشعر أن أنفاس الشيخ الهرم ستكون معدودة. كان مسجى أمامه، ومع كل نظرة عين، أدرك محمد أن الشيخ تعرض لضغط نفسي شديد.

عرف محمد من حارس المقبرة لاحقا تركي، أن رفيقه الهرم زار المقبرة وقبل أن يغادرها بكى إلى حدّ فقدان الوعي.

- رأيته بالقرب من قبر والدته، حاملا ظرفا بريديا على ما يبدو، واصل حارس المقبرة الستيني سرد شهادته وهو يراقب تركي:

- وكم كانت دهشتي كبيرة، وأنا أسمعه يقرأ بالفرنسية ما كان مكتوبا فيها..ويبكي بالقرب من القبر بحرارة كبيرة.

كان اسم "سالم" آخر كلمة تلفظ بها تركي، وهو يقرأ آخر ما كتب رابح التّلي لصديقه، في رسالته التي عرفت الطّريق إلى عنوانها بعد سبعين عاما. بريد فرنسا، حفظ في خزائنه، مثلما حفظ وثائق الجزائريين لأكثر من سبعة عقود، وأشفق أخيرا على هؤلاء الأنديجان، بإرسال بريد أحد جنودهم، وهي محشوة بالأحزان وبـ 1500 فرنك قديم، وبجوارها 1500 فرنك أخرى مضرجة بالدّماء القديمة.

*

جلس محمّد بالقرب من عتبة بيت سالم شقيق المرحوم تركي، ولم تكتمل لديه الصورة، حين تهادى إلى مسمعه وهو رفقة زملاء المستشفى بأن عمر غادر المدينة، بعد عملية إطلاق الرصاص، وأن التحقيق جارٍ.

لم يكن عمر وحده من غادر الدّيار، فها هي التّاليا هامت على وجهها، على خطى عربية، التي لم تسعفها رصاصة البندقية ذاتها التي أنهت حياة عامر، على الوصول إلى خيام تركي.

*

وسط هذا القلق، وضجيج الأفكار ، اقترب سالم من محمّد، وأخذ بكفّه ليعطيه بعيدا عن أي عين سرةٌ معطّرة، وعلى بعد خطوات سارا سويا ليقول سالم للشاب:

- شوف يا وليدي...قبل أن يودّع الدنيا، أوصاني تركي بأن أعطيك هذه.

أخذ محمد من سالم تلك السرة، وفيها مصحف ورسالة. ومع تأكده من المحتوى، التفت إلى سالم، فإذ به يغادره فجأة. فأعاد عمر هزّ العلبة وكرّر تحريكها، وبصوت عال حاول به الوصول إلى سالم، الذي أمسى شبحا في الطريق الطويل نادى عليه:

- شكرا يا سي سالم...وربّي يصبركم

لم يرد عليه سالم، إلا بالتفاتة، لمس عبر هزّ الرأس منها شكرا من شقيق الرّاحل الغريب.

عاد محمد إلى البيت سريعا، وأول ما فعله، فتح العلبة، ثم إغلاق باب غرفته المظلمة إلا ببصيص من ضوء كهرباء ضعيف الطاقة.

مع أول نظرة منه وقعت على مظروف أنيق، فتحه بهدوء، ورغبة الاستكشاف تطارده لقراءة ما كتب بداخله.

مع حروف أنيقة، حاول محمّد بما لديه من رصيد **فرنسي** مقبول، أن يفك شفرة تركي الكتابية، والتي زادت وضوحا مع جلاء الكلمات وتناسق حروفها:

لا تستغرب يا محمد، أن أكتب لك. والواقع أنني منذ غادرت المستشفى، وأنا أفكر في قول شيء ولكن، ولم يتح لي ولك في حينه وداخل خيمة السوق، الحديث عن شخص تعرفه وأعرفه...

ما كاد الشاب يبدأ هذه الأسطر حتى انقطع نور الكهرباء، ووجد نفسه مجبرا على إحضار ما تبقى من شموع.

قدح من ولاعة زمان بعض **الشرر**، وراح مع خيط الشمعة **المضيء** بدفء يقرأ ما كتب:... في سنة 1957 عرفت جدّك، وقد كان ضمن من عمل مع ابن عمّ القايد. ولا تظن أن تهمة "الحركي" التي بقيت ملاصقة له، هي من صنع يده، بل هي من تدبير ابن عمه. والسبب كي تكون على علم به هو أنا. في عنقي دين كبير لجدّك الذي أواني في بيته، في عام طاردتني فيه حاسي بحبح ومن فيها.

وحين رفض أن يعطيني لرسل سلالة القايد خادم فرنسا، ألصقت بجدّك تهمة إعانة "المسبلين". ربما تعرف بعضا من هذه التفاصيل. ولكن الذي لا تعرفه أن جدّك كان بالفعل عونا لكل من التحق بجبل بوكحيل في منطقة الجلفة وعين معبد. جدّك راجل ونص... عاد النّور إلى الغرفة، بأكثر إشعاعا مما تعوّد عليه محمد. ولكن شغف القراءة، طارده ومنع عنه الالتفات إلى هذا الوهج غير المعتاد:

.. لم أشأ إخبارك بـأي شيء، وحيـنما سـألك شـقيقي، تـراءى لي أن أفاتحـك بالأمر حينما عرفت جدّك.. لم يكن جدّك حركيا ولا خادما لفرنسا، بل هـي تهمة أُلصقت به مثلما تزال على ناصية كل مـن يقـول إننـي حُـرّ...وإليـك هديتي التي لا يعرفها حتى أبوك نفسه، وهي وثيقة أودعها جـدّك عنـدي ممضاة من قائد الناحية السادسة نفسه ..

وبلغة عربية واضحة، تجلى ما في الوثيقة المرافقة لرسالة تركي:

نحن ز. ع نشهد أن علي بن بلكبير الوحيـد الموكـل إليـه توصـيل الرسـالة مني وإلي....

*

قام محمد، يجرّ بخطى الشباب جسده إلى تلـك المقـبرة التـي كانـت اللّحد، الذي انتظر تركي طويلا. دخل سريعا الطريق الوطني رقم 1، والذي كان طريق السهوب خلال العهد الاستعماري، ومع سيره على شريان حاسي بحبح الطويل، بان له هناك في أفقها البـدوي، سرب مـن الخرفـان تطـارده بهدوء وأناة خطوات رجـل وفتـى، أطلـت خلفهـما شـمس محطـة حـاسي بحبح، كان بها تودّع الرّاحلين، وتنتظر يوما جديـدا ومعانـاة رعـاة آخـرين من مثل تركي وأترابه.

تمت الطباعة بمطابع دار بغدادي